يظل الرجل طفلاً حتى تموت أمه

دمعة على قبر أمي

أ.د/ صالح بن حسين العايد

alaayeddr@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، 1432هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
العايد، صالح حسين.
يظل الرجل طفلاً حتى تموت أمه/ صالح حسين العايد ط12
الرياض، 1432هـ
182 صفحة، 14×20
ردمك: 9960-9588-9-3
1- النثر العربي – مجموعات أ. العنوان
ديوي 819.008

رقم الإيداع 1432/393هـ
ردمك: 9960-9588-9-3

الطبعة الثانية عشرة
1432هـ/2011م

دار كنـــوز إشبيليا للنشر والتوزيـــع

المملكة العربية السعودية ص ب: 27261 الرياض 11417
هاتف: 4914776-4968994 فاكس: 4453203
E-mail; eshbelia@hotmail.com.

يَظلُّ الرجُلُ طِفْلاً حتى تمُوْتَ أُمُّهُ

«دمعةٌ على قبر أمّي»

تأليف

أ.د. صالح بن حسين العايد

alaayed@hotmail.com

إِهْدَاءُ

- إلى كُلِّ أُمٍّ إكْراماً لأُمِّيْ رَحِمهَا اللّهُ:

«وَلأَجْلِ عَيْنٍ أَلْفُ عَيْنٍ تُكْرَمُ»[1]

- إلى كُلِّ مَنْ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ، وَلَهُ قَلْبٌ كَقَلْبِيْ.
- إلى مَنْ فَقَدَ مِثْلَ مَنْ فَقَدْتُ، وَحَزِنَ مِثْلَمَا حَزِنْتُ.

[إِهْدَاءٌ خَاصٌ]

- إلى مَنْ فَقَدَ مَنْ فَقَدْتُ، وَحَزِنَ مِثْلَمَا حَزِنْتُ، إلى إخْوَتِيْ :

أبي سامي، وأبي عبدالله، وأبي نَوَّافٍ، وأبي عبدالرحمن.

- وإلى شقيقاتي:

أُمِّ رَامِيْ، وَأُمِّ صُهَيْبٍ، وَأُمِّ مُهَنَّدٍ.

أُهْدِيْكُمْ

(دَمْعَتِيْ عَلَى قَبْرِ أُمِّيْ)

مَا قبْلَ المُقَدِّمَة

هَذَا الكِتَابُ رَسَمْتُ حُرُوْفَهَ وَكَلِمَاتِهِ وَجُمَلَهُ بِمِدَادٍ مِنْ قَلْبِي قَبْلَ مِدَادِ قَلَمِيْ، وَمَهَرْتُهُ بِالعَبَرَاتِ قَبْلَ العِبَارَاتِ؛ فَهُوَ صَدًى لِفَقْدِ أَحَبِّ الأَحْبَابِ...

وَهَلْ مِنْ مُصِيْبَةٍ - سِوَى فَقْدِ الدِيْنِ - أَعْظَمُ مِنَ المَوْتِ؟

وَهَلْ مِنْ مَوْتٍ أَشَدُّ إِيْلاماً مِنْ مَوْتِ الأُمِّ؟

وَهَلْ مِنْ حَدِيْثٍ أَصْدَقُ مِنَ الرِثَاءِ؟

وَهَلْ مِنْ رِثَاءٍ أَصْدَقُ مِنْ رِثَاءِ الأُمِّ؟

مَا سَتَقْرَؤُوْنَهُ فِي هَذَا الكِتَابِ - إِنْ شَاءَ اللهُ- كَلامٌ مُلْتَاعٌ أَحْسَبُ أَنَّهُ قَدِ اِكْتَسَى حُلَّةً مِنَ الصِدْقِ قَشِيْبَةً؛ لأَنَّهُ نَبَعَ مِنَ صَمِيْمِ الفُؤَادِ وَوُجْدَانِهِ، وَانْبَجَسَ مِنْ أَعْمَاقِ القَلْبِ وَأَرْكَانِهِ.

إِنَّهُ قَلْبِي زَرَعْتُهُ عَلَى صَفَحَاتِ الوَرَقِ؛ لِيَنْبُتَ فِي قُلُوْبِ النَاسِ، وَلِيُثْمِرَ فِي سُلُوْكِهِمْ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ؛ وَقَدْ قَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ: (**لا يَنْفَعُ القَلْبَ**

إلا مَا خَرَجَ مِنَ القَلْبِ). وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِقَيْسٍ العَنْبَرِيُّ: (الكَلِمَةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ وَقَعَتْ في القَلْبِ، وَإذا خَرَجَتْ مِنَ اللِسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الآذانَ).

آمُلُ أنْ تَقْرَؤُوْا كِتَابِي هَذَا بِعُيُوْنِ القُلُوْبِ؛ كَي تَلِجَ كَلِمَاتُهُ في سُوَيْدَاءِ قُلُوْبِكُمْ، وَعَسَى أنْ يَكُوْنَ صَدَاهُ بِرّاً بِوَالِدِيْكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ؛ فَأَظْفَرَ بِحُسْنَيَيْنِ:

الأُوْلَى: أَجْرٌ مِثْلُ أَجْرِكُمْ؛ لأَنَّ الدَالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ.

وَالأُخْرَى: دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ في ظَهْرِ الغَيْبِ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ - رَحِمَهُمَا اللهُ - وَلِذُرِّيَّتِيْ.

وَأَتَمَنَّى لَكُمْ مَعَهُ قِرَاءَةً مُمْتِعَةً مُفِيْدَةً بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

المقدمة

الـحَمْدُ لله حَمْداً لا يَبْلَى جَدِيْدُهُ، وَلا يُحْصَى عَدِيْدُهُ، وَلا تُبْلَغُ حُدُوْدُهُ، كَتَبَ رَبُّنَا عَلَى الدُنْـيَا الفَنَاءَ، وَكَتَبَ عَلَى الآخِرَةِ البَقَاءَ، فَلا بَقَاءَ لِـما كَتَبَ عَلَيْهِ رَبُّنَا الفَنَاءَ، وَلا فَنَاءَ لِـمَا كَتَبَ عَلَيْهِ رَبُّنَا البَقَاءَ، فَطُوْبَى لِـمَنْ أَخَذَ مِنْ فَنَائِهِ الذِيْ لا يَبْقَى لِبَقَائِهِ الذِيْ لا يَفْنَى.

وَالصَلاةُ وَالسَلامُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ الله محمّدِ بنِ عبدِالله الـذِيْ لَـوْ سَلِمَ أَحَدٌ مِنَ الـمَوْتِ لَكَانَ هُوَ السَالِمَ، وَلَوْ كَانَ الـخُلُوْدُ في الدُنْـيَا مَنْقَبَةً لَمَا أَحْرَاهُ بأَنْ يَكُوْنَ هُوَ الدَائِمَ.

كُتِبَ الفَنَاءُ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَالنَاسُ بَيْنَ مُقَدَّمٍ وَمُخَلَّفِ
سُبْحَانَ ذِي الـمَلَكُوْتِ أَيَّةُ لَيْلَةٍ
مَخَضَتْ بِوَجْهِ صَبَاحِ يَوْمِ الـمَوْقِفِ[2]

أَمَّا بَعْدُ:

فَعِنْدَمَا تَدْلَهِمُّ ظُلُمَاتُ الحُزْنِ، وَتَكْفَهِرُّ دَيَاجِيْهِ، قَدْ تَبْدُوْ لِلْمَحْزُوْنِ شُمُوْعٌ يَجْلُوْ نُوْرُهَا شَيْئاً مِنْ غَيَاهِبِهِ الدَامِسَةِ، فَتُوْمِضُ خِلالَهَا (**شُمُوْعٌ فِيْ ظَلامِ الحُزْنِ**).

وفي هَجْعَةِ كَوَابِيْسِ الأَسَى وَصَمْتِ الشَجَا قَدْ تَجْرِيْ عَلَى لِسَانِ المَحْزُوْنِ هَمَسَاتٌ يُمَزِّقُ صَدَاهَا سُكُوْنَهُ؛ لأَنَّهَا فَيْضٌ مِنْ بَحْرِ رُؤَى شَجِيَّةٍ صَادِقَةٍ تَتَدَفَّقُ عَلَيْهِ فِي صَفَاءٍ وَزُهْدٍ، فَتُسْمَعُ مِنْ خِلالِهَا (**هَمَسَاتٌ فِي صَمْتِ المَآسِيْ**).

فَمَا أَحْرَى اللبِيْبَ بِأَنْ يُسَرِّحَ طَرْفَهُ فِي شُمُوْعِ المَحْزُوْنِيْنَ!.

وَمَا أَجْدَرَ العَاقِلَ بِأَنْ يُرْهِفَ سَمْعَهُ إِلى هَمَسَاتِ المَكْرُوْبِيْنَ!.

وَإِنَّنِيْ حِيْنَمَا أَنَاخَتْ مُصِيْبَةُ مَوْتِ أُمِّيَ الحَبِيْبَةِ (**رُقَيَّةَ بِنْتِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ الجُمَيْلانِ**) رَحِمَهَا اللهُ، حِيْنَمَا أَنَاخَتْ تِلْكَ المُصِيْبَةُ الجَلِيْلَةُ بِكَلْكَلِهَا عَلَى قَلْبِيْ، وَأَضْوَانِيْ لَيْلُ الكُرْبَةِ بِهُمُوْمِهِ، تَذَكَّرْتُ حِيْنَذَاكَ نِعَمَ اللهِ عَلَيَّ التِيْ لا تُحْصَى، وَأَفْضَالَهُ التِيْ لا تُنْسَى، وَأَنَّنِيْ قَدْ أَمْضَيْتُ عُقُوْداً خَمْسَةً أَسْبَحُ فِي بُحُوْرِ آلائِهِ وَفَيْضِ مَكَارِمِهِ، كُنْتُ طَوَالَهَا أَتَنَعَّمُ بِلَذَّةِ

عُبُوْدِيَّتِي لِرَبِّـيْ، وَأَعْتَزُّ وَأَفْخَـرُ بِـها، وَكُنْتُ خِـلالَـهَـا أَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في عُلاهُ مُخْبِـتاً إِلَيْهِ وَمُنْكَسِراً بَيْنَ يَـدَيْـهِ: (**إِلَـهِيْ كَفَانِيْ فَـخْـراً أَنْ تَكُـوْنَ لِيْ رَبّاً، وَكَـفَـانِيْ عِـزّاً أَنْ أَكُـوْنَ لَكَ عَبْـداً، أَنْتَ لِـيْ كَمَا أُحِبُّ، فَاجْعَلْنِيْ كَمَا تُحِبُّ**).

وَكُنْتُ - وَلا زِلْتُ بِـفَـضْـلِ اللهِ وَحْدَهُ - أَجْأَرُ إِلَيْهِ مُبْتَهِلاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

أَجَلْ، لَقَدِ انْفَرَطَتْ من عُمُرِيْ خَمْسَةُ عُقُـوْدٍ انْفِرَاطـاً أَسْرَعَ مِـنْ جَفْـنٍ إلى إِغْـضَاءٍ؛ لأَنَّنِـيْ كُنْتُ فِـيْهَا آنَس بِـقُرْبِ الأَحْبَابِ، وَأَسِـيْحُ في بِـلادِ اللهِ الوَاسِـعَةِ، وفي صَـفَحَاتِ الكُتُـبِ الـمَاتِعَةِ، فَـالطَّرْفُ يَـسْرَحُ في كَـوْنِ اللهِ الفَسِيْحِ مُتَفَكِّـراً، وَالفِكْـرُ يَتَـنَعَّمُ في سِيَاحَتِيْنِ:

سِيَاحَةٌ في قَارَّاتِ الأَرْضِ، وَسِيَاحَةٌ في عَالَمِ الأَدَبِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَكُنْتُ إنْ رَحلْتُ نَزَلْتُ بَيْنَ أَصْحَابٍ، وَإِذَا أَقَمْتُ بَقِيْتُ بَيْنَ أَحْبَابٍ: أُمٌّ رَؤُوْمٌ، وَأَوْلادٌ بَرَرَةٌ، وَإِخْوَةٌ مُشْفِقُوْنَ، وَأَخَوَاتٌ عَطُوْفَاتٌ، وَزَوْجَاتٌ حَنُوْنَاتٌ:

أَلا رُبَّ أَعْوَامٍ سَحَبْتُ ذُيُوْلَهَا
سَعِيْداً مَعَ الأَحْبَابِ في شَاهِقٍ أَشَمْ
أُرَشِّحُ آمَالاً طِوَالاً فَأَجْتَنِيْ
جَنَى العَيْشِ في ظِلٍّ ظَلِيْلٍ مِنَ النِعَمْ(3)

وَهَكَذَا كَانَتْ سِنِيْنِيْ - بِسَبَبِ سَعَادَتِيْ - تَتَصَرَّمُ شُهُوْراً، وَكَانَتْ شُهُوْرِيْ تَمْضِيْ أَيّاماً، وَكَانَتْ أَيّامِيْ تَتَسَارَعُ سَاعَاتٍ، وَكَانَتْ سَاعَاتِيْ تَنْقَضِيْ دَقَائِقَ ....

أَلا مَا أَسْرَعَ الدَقَائِقَ في السَاعَاتِ!
وَمَا أَسْرَعَ السَاعَاتِ في الأَيَّامِ!
وَمَا أَسْرَعَ الأَيَّامَ في الشُهُوْرِ!
وَمَا أَسْرَعَ الشُهُوْرَ في السِنِيْنَ!

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَكِنْ – وَأَسَفَاهُ – مَا أَسْرَعَ السِنِيْنَ فِي العُمُرِ!

وَمَــا هِــيَ إلا لَيْلَــةٌ بَعْــدَ لَيْلَــةٍ

وَيَــوْمٌ إلى يَــوْمٍ وَشَــهْرٌ إلى شَــهْرِ

مَطَايَــا يُقَــرِّبْنَ الــجَدِيْدَ إلى البِــلَى

وَيُــدْنِيْنَ أَشْــلاءَ الــصَحِيْحِ مِــنَ القَــبْرِ [4]

أَتَرَوْنَ بَعْدَ مَا ذَكَرْتُ أنَّ أَحداً كَانَ أَنْعَمَ مِنِّيْ بَالاً؟

أَمْ تجِدُوْنَ أنَّ امْرَءاً كَانَ أَحْسَنَ مِنِّيْ عِيْشَةً وَحَالاً؟

وَمَا أَجْمَلَ رِحْلَةَ الهُرُوْبِ عَلَى قِطَارِ الذَاكِرَةِ حِيْنَمَا تَسْرِيْ فِي الأَوْصَالِ بُرُوْدَةُ الفَنَاءِ القَاهِرَةُ!!! فَالدُنْيَا جَمَّةُ المَصَائِبِ، وَمُرَّةُ المَشَارِبِ؛ حَيْثُ لا تُمَتِّعُ صَاحِباً بِصَاحِبٍ، وَإنَّ مِنْ سَجَايَاهَا أنَّهَا لا يَدُوْمُ سُرُوْرُهَا، بَلْ يَسْتَمِرُّ مَرِيْرُهَا؛ فَفَجْأَةً مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، فَخَيَّمَ عَلَيَّ الحَزَنُ بِظِلالِهِ، وَأَرْخَى عَلَيَّ الغَمُّ سُدُوْلَهُ، وَعَلِمْتُ حِيْنَذَاكَ، حِيْنَ العِلْمُ قَدْ يُجْدِي الفَتَى، أنَّ هَذِهِ الدُنْيَا دَنِيَّةٌ؛ فَمَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ فِيْهَا – مَهْمَا كَانَتْ مَرِيَّةً –

شَرَقٌ، وفي كُلِّ أَكْلَةٍ فِيْهَا - وَلَوْ كَانَتْ هَنِيَّةً - غَصَصٌ؛ فَالدُنْيَا - أَيُّهَا الأَحْبَابُ - تُصْبِحُ لِلْنَاسِ مُسِرَّةً، وَلَكِنَّهَا تُمْسِيْ عَلَيْهِمْ مُتَنَكِّرَةً.

وَأَيْقَنْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ لا تُنَالُ فِي الدُنْيَا نِعْمَةٌ إلا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يَسْتَقْبِلُ مُعَمَّرٌ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ.

وَأَدْرَكْتُ أَيْضاً بَعْدَ أَنْ زَالَتِ الغِشَاوَةُ عَنْ عَيْنَيَّ أَنَّ حَيَاةَ الإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ بَالِيَةٌ كَنَسْجِ العَنْكَبُوْتِ، أَوْ هِيَ أَوْهَنُ، وَهَلْ هُنَاكَ أَوْهَنُ وَأَحْقَرُ مِنْ بَيْتِ العَنْكَبُوْتِ؟: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]:

وَبَيْتُ العَنْكَبُوْتِ إذا رَحَلْنَا
يُعَادِلُ بِالخَوَرْنِقِ وَالسَدِيْرِ (5)

إِنَّنِيْ حِيْنَمَا مَاتَتْ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- حَزِنْتُ حُزْنَ يَعْقُوْبَ عَلَيْهِ السَلامُ، وَبَكَيْتُ بُكَاءَ الثَكَالَى، لَكِنْ بِلا دَمْعٍ يُطْفِئُ لَهِيْبَ الفَقْدِ وَجَمْرَتَهُ، وَيُخَفِّفُ حَرَارَةَ الوَجْدِ وَحَمْأَتَهُ، وَيُزِيْلُ مَرَارَةَ اللَوْعَةِ، وَيَمْحُو قَتَامَةَ السُهْدِ وَظُلْمَتَهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

شَرِبْتُ الحُزْنَ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ
فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوِيْتُ(6)

وَرَثَيْتُ أُمِّيْ - رَفَعَ اللهُ مَنْزِلَتَهَا في عِلِّيِّيْنَ -، رَثَيْتُهَا؛ لَعَلَّ الرِثَاءَ يَكُوْنُ (نَفْثَةَ مَصْدُوْرٍ)، (وَلا بُدَّ لِلْمَصْدُوْرِ يَوْماً مِنَ النَفْثِ)(7)؛ لِيَزُوْلَ مَا بِهِ، أَوْ يَخِفَّ شَجَنُهُ :

قِيْثَارَتِيْ مُلِئَتْ بِأَنَّاتِ الجَوَى
لا بُدَّ لِلْمَكْبُوْتِ مِنْ فَيَضَانِ
صَعَدَتْ إِلَى شَفَتِيْ خَوَاطِرُ مُهْجَتِيْ
لِيُبِيْنَ عَنْهَا مَنْطِقِيْ وَلِسَانِيْ
أَنَا مَا تَعَدَّيْتُ القَنَاعَةَ وَالرِضَا
لَكِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الأَشْجَانِ
يَشْكُوْ لَكَ اللَّهُمَّ قَلْبٌ لَمْ يَعِشْ
إلا لِحَمْدِ عُلاكَ فِي الأَكْوَانِ(8)

وَلَكِنَّ ذَلِكَ الرِثَاءَ لَمْ يَزِدْنِيْ إلا حُزْناً وَحَسْرَةً وَأَسَى؛ إِذْ رَثَيْتُ، فَأَبْكَيْتُ، وَشَدَوْتُ، فَأَشْجَيْتُ، وَمَا سَلَوْتُ سُلُوَّ الأَغْمَارِ، وَلَكِنِّيْ

- بِحَمْدِ اللهِ - صَبَرْتُ صَبْرَ الأَحْرَارِ، (وَالصَبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ صَبْرُ)[9] :

فَالصَبْرُ كَالصَبْرِ مُرٌّ فِيْ مَذَاقَتِهِ
لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ[10]

(بَلِ الصَبْرُ تَارَاتٍ أَمَرُّ مِنَ الصَبْرِ)[11] .

وَلَئِنْ كَانَ الرِثَاءُ عُنْوَاناً لِلْوَفَاءِ فَمَنْ أَحَقُّ مِنْ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- بِالرِثَاءِ؟.

وَمَنْ أَوْلَى مِنِّيْ لأَغْلَى النَاسِ (أُمِّيْ) - رَحِمَهَا اللهُ - بِالوَفَاءِ؟.

أُمِّيَ التيْ تَتَقَازَمُ الفَصَاحَةُ وَالبَلاغَةُ نَثْراً وَشِعْراً عَنْ وَصْفِ مَآثِرِهَا وَتَعْدَادِ مَنَاقِبِهَا:

أُمَّاهُ حَقُّكِ لاَ تُوْفِيْهِ مَلْحَمَةٌ
تَمُدُّهَا بِلَطِيْفِ السِّحْرِ ذِكْرَاكِ
لَوْلاَكِ مَا فَاضَ شِعْرِيْ مِنْ مَكَامِنِهِ
وَلاَ تَحَرَّكَتِ الأَشْجَانُ لَوْلاَكِ[12]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَابْنُهَا الـمُحِبُّ الذِيْ مَهْمَا صَنَعَ فَلَنْ يُوَفِّيَهَا حقَّهَا، وَمَهْمَا خطَّتْ أَنَامِلُهُ مِنَ الكَلِمَاتِ فَلَنْ تَبْلُغَ مِقْدَارَ شَأْوِهَا، وَلَنْ تَسْتَطِيْعَ العِبَارَاتُ وَالـجُمَلُ أنْ تُفْصِحَ عَنْ مَكْنُوْنِ ضَمِيْرِ ابْنِهَا الـمُلْتَاعِ مِنْ فَقْدِهَا:

مَاذَا سَأَكْتُبُ عَنْ نَهْرِ الـحَنَانِ وَهَلْ
يُطِيْقُ حَمْلَ شُعُوْرِيْ نَحْوَكِ الوَرَقُ؟

بَلْ كَيْفَ أُوْفِيْكِ مَا قَدَّمْتِ مِنْ كَرَمٍ
وَمِنْ حَنَانٍ وَمِنْ حُبٍّ لَهُ أَلَقُ؟

أُمَّاهُ هَذَا فُؤَادِيْ جَاءَ مُعْتَذِراً
عَنْ عَجْزِهِ يَحْتَوِيْهِ الـخَوْفُ وَالقَلَقُ

لَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَ جَهْدٍ رَدَّ مَا بَذَلَتْ
كَفَّاكِ حَتَّى دَنَا مِنْ عَزْمِهِ الشَّفَقُ (13)

وَلَكِنَّ الـحَزَنَ حِيْنَ حَبَسَ دُمُوْعَ عَيْنَيْهِ قَدْ أَسَالَ دَمْعَ قَلَمِهِ، وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: (**لا أَصْدَقَ مِنَ الرِثَاءِ**)؛ لأَنَّ الرَاثِـيَ يَرْسِمُ مَشَاعِرَهُ عَمَّنْ لَـمْ يَعُدْ يَرْجُوْ نَوَالَهُ وَلا مَدْحَهُ وَلا رِضَاهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

طَــوَى الــمَوْتُ أَسْــبَابَ الــمُحَابَاةِ بَيْنَنَــا
فَلَســتُ وَإِنْ أَطْنَــبْتُ فِيْــكِ بِمُتَّــهَمْ[14]

وَهَكَـذَا وُلِـدَتْ مَرْثِيَّـتِيْ لأُمِّـيْ رَحِمَهَـا اللهُ؛ حَيْـثُ انْقَـدَحَتْ فِي خَـاطِرِيْ مِـنْ بَـيْنِ رُكَـامِ الأَحْـزَانِ رُؤًى رَسَـمْتُهَا فِي مَقَالَـةٍ وَسَـمْتُهَا بِـ(**يَظَـلُّ الرَجُـلُ طِفْـلاً حَتَّـى تَمُـوْتَ أُمُّـهُ**)، وَنَـشَرَتْهَا صَحِـيْفَةُ (**الـجَزِيْرَةِ**) **الـسُعُوْدِيَّةُ** يَـوْمَ الـخَمِـيْسِ التَاسِـعَ مِـنْ شَـهْرِ جُمَادَى الآخِـرَةِ مِـنْ عَـامِ 1424هـ الـمُوَافِقَ الـسَابِـعَ مِـنْ شَهْرِ أَغُسْطُسَ مِنْ عَامِ 2003م.

وَبَعْدَ نَشْرِهَا اتَّصَلَ بِيَ أَكْثَرُ مَنْ أَعْرِفُهُ، وَكَثِيْرٌ مِمَّنْ لا أَعْرِفُهُ، وَكُلُّهُمْ يُبْدُوْنَ تَأَثُّرَهُمْ بِـهَا، وَيَحُثُّوْنَنِـيْ عَلَى نَشْرِهَا فِي كِتَـابٍ يَقْرَؤُهُ مَنْ لَـمْ يَطَّلِعْ عَلَى الـمَقَالَةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ لَعَلَّهُ يَعْتَبِـرُ بِـمَا فِـيْهِ مِنْ عِبَرٍ ذَوُو الحِجَى وَالأَلْبَابِ:

فَكَمْ فِي الـحَوَادِثِ مَا يُنَبِّهُ العُيُوْنَ مِنْ سِنَةِ غُرُوْرِهَا.

وَكَمْ فِي الـمَصَائِبِ مَا يُذَكِّرُ النُفُوْسَ بِـأَهَمِّ أُمُوْرِهَا.

وَكَمْ فِي الرَزَايَا مَا يَكْشِفُ بِجَلاءٍ أَنَّ آمَالَ هَذِهِ الدُنْيَا سَرَابٌ، وَأَنَّ كُلَّ الذِيْ فَوْقَ التُرَابِ تُرَابٌ.

وَإِنَّنِيْ إذ أَسْتَجِيْبُ لِرَجَاءِ الرَاجِيْنَ، وَأُقَدِّمُ هَذَا الكِتَابَ الذِيْ يَحْمِلُ غِلافُهُ صُوْرَةَ قَبْرِ أُمِّيْ أَفَاضَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ شَآبِيْبِ رَحَمَاتِهِ، لأَرْجُوْ مِنَ القُرَّاءِ دَعْوَةً صَادِقَةً صَالِحَةً فِيْ ظَهْرِ الغَيْبِ لِيْ ولأُمِّيْ وَأَبِيْ رَحِمَهُمَا اللهُ؛ لأَنَّنِيْ وَإِيَّاهُمَا اليَوْمَ وَكُلَّ يَوْمٍ أَحْوَجُ مَا نَكُوْنُ إِلَيْهَا؛ فَهِيَ مَا بَقِيَ لَنَا مِنَ الدَعَوَاتِ المُسْتَجَابَةِ بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَتْ دَعَوَاتُ الوَالِدَيْنِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العُلَى أَنْ يَرْحَمَ أُمِّيْ وَأَبِيْ رَحْمَةً وَاسِعَةً تُغْنِيْهِمَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهَا. وَأَنْ يَفْسَحَ لَهُمَا فِيْ قَبْرَيْهِمَا، وَأَنْ يَمْلأَهُمَا بِالضِيَاءِ وَالنُوْرِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمَا رَوْضَتَيْنِ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَأَنْ يَجْزِيَهُمَا خَيْرَ مَا جَزَى أَبَوَيْنِ عَنْ أَوْلادِهِمَا، وَأَنْ يَشْمَلَنِيْ وَإِيَّاهُمَا مَنّاً مِنْهُ وَفَضْلاً بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَأَنْ يَجْمَعَنِيْ بِهِمَا فِي

الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنْ جِنَانِهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لِيْ وَلَهُمَا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَوْمَ يَقُوْمُ الأَشْهَادُ.

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ.

الرياض: يوم الاثنين 10/8/1424هـ

الأستاذ الدكتور

صالح بن حسين بن عبدالله العايد

((أبو أسامة))

2779 شارع رازان/ حيّ الازدهار/ الوحدة 1

الرياض: 12485- 6547

alaayeddr@gmail.com
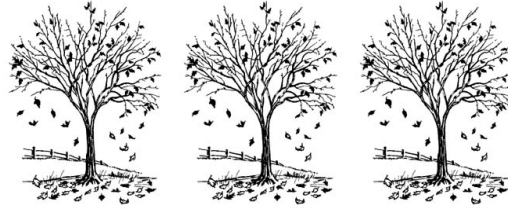
اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَقْفَةٌ أَمَامَ الْمَوْتِ

◉ عَجَباً لِلمَوْتِ، ذَلِكُمُ الحَوْضُ المَوْرُوْدُ....

كُلُّ حَيٍّ مَهْمَا طَالَ عُمُرُهُ سَيَرِدُهُ بِلا رَيْبٍ كَارِهاً أَوْ مُطِيْعاً:

الـمَوْتُ حَوْضٌ لا مَحَالَةَ دُوْنَهُ

مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَرِيْهٌ مَشْرَبُهْ[15]

◉ عَجَباً لأَبِي يَحْيَى (الـمَوْتِ)، ذَلِكُمُ الكَأْسُ المَشْرُوْبُ....

كُلُّ حَيٍّ سَيَتَجَرَّعُ مِنْهُ شَرْبَةً غَيْرَ سَائِغَةٍ وَلا هَنِيَّةٍ:

الـمَوْتُ كَأْسٌ عَلَى كُلِّ الوَرَى جَارِيْ

وَلَيْسَ يَبْقَى بِلا مَوْتٍ سِوَى البَارِيْ[16]

◉ عَجَباً لِهَادِمِ اللَّذَّاتِ وَمُفَرِّقِ الجَمَاعَاتِ، وَعَجَباً لِمُخَرِّبِ الدُّوْرِ وَعَامِرِ القُبُوْرِ (الـمَوْتِ)، ذَلِكُمُ البَابُ المَفْتُوْحُ.... كُلُّ إِنْسَانٍ لا بُدَّ رَاغِماً سَيَدْخُلُهُ:

الـمَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَاسِ دَاخِلُهُ

فَلَيْتَ شِعْرِيَ بَعْدَ البَابِ مَا الدَّارُ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَـــوْ كُنْـــتُ أَعْلَـــمُ مَـــنْ يَــدْرِيْ فَـيُخْبـــرُنِيْ

أَجَنَّـــــةُ الـــــخُلْدِ مَـأْوَانــــا أَمِ النَــــارُ؟[17]

◉ عَجباً لِلْمَــوْتِ بـأَيِّ اسْمٍ تَسَمَّى... و بـأَيِّ كُنْيَـةٍ تَكَنَّـى... وَبـأَيِّ لَقَبٍ تَلَقَّبَ؛ فَكُلُّ الطُرُقِ تُـؤَدِّيْ إِلَيْـهِ، سَرِيْعِهَـا وَبَطِيْـئِـهَا، بَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَجَوِّهَا:

سَبـــــِيْلُ المَــــوْتِ غَــــايَةُ كُــــلِّ حَــــيٍّ

فَدَاعِيْـــــــهِ لأَهْـــــــلِ الأَرْضِ دَاعِـــــــيْ[18]

وَأَعْجَبُ مِنْهُ بُنَيُّ آدَمَ؛ كَأَنَّهُ يَسْتَبْطِئُهُ إذا تَأَخَّرَ عَنْهُ، فَيَغُذُّ السَيْرَ جَاهِـداً صَـوْبَهُ، وَهُـوَ يَحْسَبُ أَنَّ فِي هَـذَا خَلاصَـهُ، وَمَـا يَـدْرِي الـمِسْكِيْنُ أَنَّهُ يُسْرِعُ بِـخُطَاهُ إِلى وُرُوْدِ حِيَاضِ الـمَنَايَا:

وَكَـــــمْ مِـــــنْ طَـــالِبٍ يَـــسْعَى لأَمْـــرٍ

وَفِـــيْهِ هَلاكُــــهُ لَـــوْ كَـــانَ يَــدْرِيْ[19]

◉ ورُبَّ سَـاعٍ إِلى شَيْءٍ فِيْهِ حَـتْـفُـهُ.

◉ وَ(**رُبَّ امْرِئٍ حَتْفُهُ فِيْمَا تَمَنَّاهُ**)[20].

◉ وَكَمْ مِنْ سَالِكٍ طَرِيْقاً لِيَلْقَى فِي نِهَايَتِهِ وِرْدَهُ وَمُنْتَهَاهُ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

نَسِيْرُ إلى الآجَالِ في كُلِّ لَحْظَةٍ
وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَوْتِ حَقّاً كَأَنَّهُ
إذا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ بَاطِلُ(21)

وَهَا هِيَ ذِيْ أَيَادِيْنَا مَا بَرِحَتْ مُعَفَّرَةً بِالتُرَابِ، تُهِيْلُهُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى أَصْحَابٍ وَأَحْبَابٍ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَفَدَيْنَاهُمْ دُوْنَ المَوْتِ وَأَهْوَالِهِ بِالنَفْسِ وَالنَفِيْسِ، وَبِالطَارِفِ وَالتَلِيْدِ، وَلَكِنَّهُ المَوْتُ، لا يَقْبَلُ العِوَضَ وَلا الفِدَاءَ، وَإلا لَكُنَّا افْتَدَيْنَا، وَأَغْلَيْنا الفِدَاءَ وَمَا بَخِلْنَا:

وَلَوْ أَنَّ هَذَا المَوْتَ يَقْبَلُ فِدْيَةً
فَدَيْنَاهُ أَمْوَالاً كِرَاماً وَأَنْفُسَا(22)

كَمَا أَنَّهُ لا يَسْمَحُ بِالإِرْجَاءِ، حَتَّى لَوْ كَانَ المُرْتَجَى إِرْجَاؤُهُ أَحَبَّ الأَحْبَابِ، أَباً أَوْ أُمّاً؛ لأَنَّهُ المَوْتُ، وَالمَوْتُ سَيْفٌ مَسْلُوْلٌ لا تَرُدُّهُ شَجَاعَةُ الأَشِدَّاءِ، وَ لا يُنجِيْ مِنْهُ جُبْنُ الجُبَنَاءِ، وَلا يَسْلَمُ مِنْهُ مَلِكٌ نَافِذُ الأَمْرِ، وَلا فَقِيْرٌ خَامِلُ الذِكْرِ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَكِنَّـــهُ الـــمَوْتُ لا يُرْضِـــيْهِ بَـــذْلُ فِـــدًى
وَلا يُـــــصِيْخُ إلى عَــــــذْلٍ وَلا فَنَـــــدِ
وَلا يَـــرِقُّ لِـــذِيْ ضَـــعْفٍ وَذِيْ خَـــوَرٍ
وَلا يُحَـــاذِرُ بَطْـــشَ الفَـــارِسِ النَجِـــدِ
يَـــأْتِي الـــمُلُوْكَ مُلُـــوْكَ الأَرْضِ مُقْـــتَحِماً
وَيُخْــرِجُ الــشِبْلَ مِــنَ عِرِّيْــسَةِ الأَسَــدِ(23)

بَلْ حَيَاتُنَا آجَالٌ مُقَدَّرَةٌ، لا تَتَقَدَّمُ وَلا تَتَأَخَّرُ، وَأَنْفَاسٌ مَعْدُوْدَةٌ، لا تَزِيْدُ، وَلا تَنْقُصُ، وَإذا حَضَرَتِ الآجَالُ افْتُضِحَتِ الآمَالُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61].

أَجَلْ، إنَّـهُ الـمَوْتُ....

وَالـمَوْتُ في مَوَازِيْنِ الـحُكَمَاءِ الـمُعْتَبَرِيْنَ أَشَدُّ مِمَّا قَبْلَهُ، وَلَكِنَّهُ بلا رَيْبٍ أَهْوَنُ مِمَّا بَعْدَهُ:

هُـوَ الـمَوْتُ لا مَنْجَـى مِـنَ الـمَوْتِ وَالـذِيْ
نُحَـاذِرُ بَعْـدَ الـمَوْتِ أَنْكَـى وَأَفْظَـعُ(24)

فَبَعْدَهُ ظَلامُ القُبُوْرِ، وَهَوْلُ النُشُوْرِ:

وَمِـــنْ بَعْـــدِ ذَا حَـــشْرٌ وَنَـــشْرٌ وَمَوْقِـــفٌ
وَيَـــوْمٌ بِـــهِ يُكْـــسَى الـــمَذَلَّةَ مُـــذْنِبُ[25]

إِيْ وَاللهِ بَعْدَهُ يَوْمٌ عَسِيْرٌ، شَرُّهُ مُسْتَطِيْرٌ، فِـيْهِ تَتَعَالَى صَيْحَاتُ الوَيْلِ وَالثُّبُوْرِ مِنْ أَصْحَابِ الغِوَايَةِ وَالفُجُوْرِ، وَلَوْلا ذَلِكَ الـمَآلُ والـمَصِيْرُ لَصَارَ الـمَوْتُ مَطْلباً لِكُلِّ إِنْسَانٍ إذا ضَاقَ بِـهِ الـمُقَامُ في دَارِ الشَقَاءِ وَالـهَوَانِ:

وَلَـــــوْ أنـــــَّا إذا مِتْنَـــــا تُرِكْنَـــــا
لَكَـــانَ الـــمَوْتُ رَاحَـــةَ كُـــلِّ حَـــيٍّ
وَلَكِنَّـــــا إذا مِتْـــــنَا بُعِشْنَـــــا
وَنُـــسْأَلُ بَعْـــدَهُ عَـــنْ كُـــلِّ شَيٍّ[26]

وَلِذَا فَمَنْ تَرَقَّبَ الـمَوْتَ لَـهَا عَنِ الـمَلَذَّاتِ، وَمَنِ اشْتَاقَ إلى الـجَنَّةِ سَارَعَ إلى الـخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَارِ فَرَّ عَنِ الشَهَوَاتِ وَالشُبُهَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الـمُصِيْبَاتُ، وَمَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الـخَيْرِ فَلْيَنْتَـهِزْهُ؛ فَإِنَّـهُ لا يَـدْرِيْ مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ؟،

وَلَيْسَ بَعْدَ الـمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَلا بَعْدَ الدُنْـيَا مِنْ دَارٍ إلا الـجَنَّةُ أَوِ النَارُ:

فَيَـــا أَيـــــُّهَا البَاغِـــــي الفِـــرَارَ أَمَامَـــهُ

هُـوَ الـمَوْتُ فـاعْلَمْ أنـَّهُ سَـوْفَ يَلْحَـقُ (27)

الطَرِيْقُ إلى المَوْتِ

قَبْلَ أَيَّامٍ قَدِمَتْ مَنْ كُنْتُ أَتَمَنَّى قُدُوْمَهَا كُلَّ حِيْنٍ، وَأَرَى في لُقْيَاهَا عِيْدِيَ الحَقِيْقِيَّ، أَتَتْ مَنْ كَانَتْ طَلْعَةُ مُحَيَّاهَا تُزِيْلُ هُمُوْمِيْ، وَتُكْشَفُ بِهَا بِفَضْلِ اللهِ غُمُوْمِيْ، وَتَغْمُرُ قَلْبِي بِالسَعَادَةِ وَالحُبُوْرِ.

أَجَلْ، لَقَدْ قَدِمَتْ أُمِّيْ إِلَيْنَا في الرِيَاضِ، وَلَكِنَّهَا في هَذِهِ المَرَّةِ أَتَتْ، وَهِيَ تُعَانِي انْسِدَاداً في أَحَدِ شَرَايِيْنِ قَلْبِهَا الذِيْ أَضْنَاهُ حَنَانُ الأُمُوْمَةِ وَإِشْفَاقُهَا، جَاءَتْ آمِلَةً أَنْ يَزُوْلَ التَعَبُ اليَسِيْرُ مِنْ صَدْرِهَا، وَلا سِيَّمَا أَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ عَمَلِيَّاتِ (القَسْطَرَةِ) القَلْبِيَّةَ أَصْبَحَتْ مِنْ أَيْسَرِ الأُمُوْرِ الطِبِّيَّةِ:

إذا مَا حِمَامُ المَرْءِ كَانَ بِبَلْدَة

دَعَتْهُ إِلَيْهَا حَاجَةٌ فَيَطِيْرُ[28]

أُدْخِلَتْ أُمِّي المُسْتَشْفَى تَحُوْطَهَا الدَعَوَاتُ الصَادِقَاتُ مَرْفُوْعَةً إِلَى رَبِّ الأَرْبَابِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهَا بِاكْتِمَالِ العَافِيَةِ مَوْلانَا العَزِيْزُ الوَهَّابُ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَانَ لَهَا مَا أَرَادَتْ، وَنَحْنُ مِثْلُهَا، فَأَجْرَى لَهَا الأَطِبَّاءُ عَمَلِيَّةَ القَسْطَرَةِ، وَنَجَحَتْ بِتَوْفِيْقِ اللهِ، وَقَدَّمَ طَبِيْبُهَا وَصْفَةَ الدَوَاءِ اللازِمِ لِمَا بَعْدَ العَمَلِيَّةِ، وَخَرَجَتْ وَالِدَتِيْ مِنَ الـمُسْتَشْفَى بِعَافِيَةٍ، وَلَكِنْ؛ لِيَجْرِيَ الـمُقَدَّرُ أَجَّلَتْ صَيْدَلِيَّةُ الـمُسْتَشْفَى إِعْطَاءَ بَعْضِ الأَدْوِيَةِ اللازِمَةِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ؛ لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُتَوَافِرَةً حِيْنَذَاكَ لَدَيْهَا!!!.

وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ شَعَرَتْ أُمِّيْ بِالأَعْرَاضِ الـخَفِيْفَةِ نَفْسِهَا التي كَانَتْ تُعَانِيْهَا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَتِ الـمُفَاجَأَةُ أَنَّ الشِرْيَانَ نَفْسَهُ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ الانْسِدَادُ، وَلَكِنَّ الأَشَدَّ فُجَاءَةً أَنَّ حُدُوْثَ ذَلِكَ -كَمَا قَالَ الطَبِيْبُ نَفْسُهُ- كَانَ بِسَبَبِ تَأْجِيْلٍ لِتَنَاوُلِ أَحَدِ الأَدْوِيَةِ، وَهُوَ الذِيْ لَمْ يَكُنْ مُتَوَافِراً فِي صَيْدَلِيَّةِ الـمُسْتَشْفَى!!!.

عِنْدَ ذاكَ قَرَّرَ الطَبِيْبُ إِدْخَالَهَا إِلَى العِنَايَةِ الـمُرَكَّزَةِ فَوْراً اِسْتِعْدَاداً لإِجْرَاءِ عَمَلِيَّةِ قَسْطَرَةٍ أُخْرَى لَهَا، وَلَكِنْ؛ وَلِيَجْرِيَ أَيْضاً مَا قَضَاهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ، عَمَدَ الأَطِبَّاءُ قَبْلَ ذَلِكَ اجْتِهَاداً مِنْهُمْ إِلَى إِعْطَائِهَا حُقْنَةً

تُسْـتَعْمَلُ عَادَةً فِي إِزَالَةِ اِنْسِدَادَاتِ الشَرَايِـيْنِ؛ عَسَى أَنْ يُغْنِـيَهُمْ ذَلِكَ الصَنِيْعُ العَاجِـلُ بِـإِذْنِ اللهِ وَعَوْنِهِ عَنْ إِجْرَاءِ العَمَلِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى:

(وَإِذا حَانَ وَقْتُ النَائِبَةِ أَتَى الشَرُّ مِنْ حَيْثُ كَانَ الخَيْرُ عَادَةً يَأْتِيْ).

وَمَهْمَا اجْتَهَدْنَا فِي أَنْوَاعِ الدَوَاءِ فَأَمْرُ اللهِ أَنْفَذُ؛ فَقَدْ يَغَصُّ بِـالـمَاءِ شَارِبُهُ، وَقَدْ يَقْتُلُ الدَوَاءُ الـمُسْتَشْفِيَ بِـهِ:

كَـمْ شَـارِبٍ عَـسَلاً فِـيْهِ مَنِيَّـتُهُ
وَكَـمْ تَقَلَّـدَ سَـيْفاً مَـنْ بِـهِ ذُبِـحَا[29]

وَالدَوَاءُ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ مِنَ الأَسْبَابِ تُسْتَمْطَرُ بِـهِ رَحْمَةُ الكَرِيْمِ الوَهَّابِ، لَكِنَّ الأَقْدَارَ مِنَ السَبَبِ أَحَقُّ، وَإِلى الـمَكْتُوْبِ أَسْبَقُ:

نُعَلِّـلُ بِـالـدَوَاءُ إِذا مَرِضْـنَا
وَهَـلْ يَـشْفِيْ مِـنَ الـمَوْتِ الـدَوَاءُ
وَنَخْتَـارُ الطَبِـيْبَ وَهَـلْ طَبِـيْبٌ
يُـؤَخِّرُ مَـا يُقَدِّمُـهُ القَـضَاءُ

وَمَـــــا أَنْفَـــــاسُنَا إلا حِـــــسَابٌ

وَلا حَرَكـــــاتُنَا إلا فَنَـــــاءُ[30]
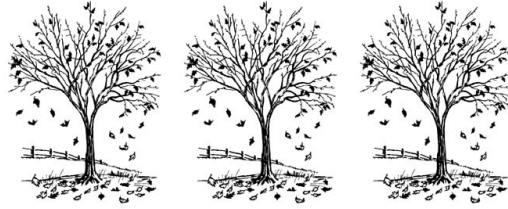
وَإِنْ أَنْـسَ فَـلا يُمْكِـنُ أَنْ أَنْـسَى حِـيْنَ انْتَهَـى وَقْـتُ الزِيَـارَةِ الـمَسَائِيَّةِ حَيْثُ كَانَتْ أُمِّيْ تَقُوْلُ لِيْ، وَهِيَ تَحْمَدُ اللهَ: إنَّهَا لَـمْ تَعُدْ تَشْعُرُ إلا بِـوَخْزٍ يَسِيْرٍ في الظَهْرِ.

ثُـمَّ وَدَّعْتُ حَبِـيْبَةَ القَلْبِ (أُمِّيْ) عِنْدَ السَاعَةِ التَاسِعَةِ تَمَاماً، وَتَرَكْـتُ غُرْفَتَهَـا بَعْـدَ أنْ أَوْدَعْتـُهَا رَبِّيْ، ثُـمَّ أَوْدَعْتـُهَا قَلْبِـــيْ، وَانْصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِيَ تَلْهَجُ بِـحَمْدِ رَبِّهَا تَسْبِـيْحاً وَتَهْلِيْلاً، وَمَنْ يَرَاهَا لا يَخَالُهَا إلا في كَمَالِ عَافِيَتِهَا؛ فَهِيَ دَائِماً صَابِـرَةٌ مُحْتَسِبَةٌ؛ لأَنَّـهَا مِنَ الذِيْنَ يُؤْلِـمُهُمْ أنْ يَرَى النَاسُ آلامَهُمْ، عَلَى حِيْنِ يَرْتَاحُ الكَثِـيْرُ مِنَ البَشَرِ أنْ يُثَرْثِرُوا بِـمَتَاعِبِهِمْ وَشَكْوَاهُمْ مِمَّا يُلِمُّ بِـهِمْ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ العَالَـمِيْنَ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِيْ أَنَّهُ سَيَكُوْنُ لِهَذَا الوَدَاعِ مَا بَعْدَهُ؛ فَعِنْدَ السَاعَةِ الثَانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَيْلِ إذا بالهَاتِفِ الجَوَّالِ يَرِنُّ، وَيُلِحُّ في النِدَاءِ، وَتِلْكَ سَاعَةٌ لا تُطْرَقُ فِيْهَا الطَيْرُ في أَوْكَارِهَا، فَأَرَاعَ ذَلِكَ قَلْبِيْ وَأَفْزَعَنِيْ؛ إذ رَجَّحْتُ أنَّهُ قَدْ حَدَثَ مَكْرُوْهٌ، وَتَوَقُّعُ المُصِيْبَةِ عَادَةً أَشَدُّ هَوْلاً مِنْ وُقُوْعِهَا إلا في تِلْكَ السَاعَةِ العَصِيْبَةِ، وَتِلْكَ الفَاجِعَةِ المُصِيْبَةِ.....

نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِيْ فَزِعاً مَذْعُوْراً، أَسْأَلُ المَوْلَى -جَلَّ جَلالُهُ- اللُطْفَ في قَضَائِهِ، وَأَعْثَرُ في مِشْيَتِيْ أَنَّى اتَّجَهْتُ بِوَجْهِيْ، وَحِيْنَ أَبْصَرْتُ بِعَيْنٍ غَابَ بِالنَوْمِ نِصْفُ نَظَرِهَا، وَرَأَيْتُ عَلَى شَاشَةِ الهَاتِفِ الجَوَّالِ اِسْمَ (**إِبْرَاهِيْمَ**) أَخِيْ، وَهُوَ أَبَرُّنَا بِأُمِّهِ، وَكُلُّ إِخْوَتِيْ وَأَخَوَاتِيْ بِحَمْدِ الله بَرَرَةٌ، وَلَكِنْ أَشْهَدُ لـ(**إِبْرَاهِيْمَ**) أَنَّهُ مَا مَاتَ مَنْ خَلَّفَ مِثْلَهُ.

أَقُوْلُ: حِيْنَذَاكَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لأُمِّيْ مَا لا أَتَمَنَّى سَمَاعَهُ، فَغَشِيَتْنِيْ غِشَاوَةٌ، ثُمَّ اسْتَرْجَعْتُ، وَقُلْتُ: (حَسْبُنَا اللهُ، وَنِعْمَ

الوَكِيْلُ)، وَاسْتَمَعْتُ إِلَيْهِ بِـمَا بَقِيَ مِنْ حَـوَاسِّيْ، وإذا بِـهِ يَقُـوْلُ: إنَّ الـمُسْتَشْفَى اتَّصَلُوْا بِـهِ، وَأَخْبَرُوْهُ أنَّ وَالِدَتَنَا حَصَلَ نَزِيْفٌ دَاخِلِيٌّ فِي رَأْسِهَا، وَأنَّـهَا تَحْتَاجُ إلى عَمَلِيَّةٍ عَاجِلَةٍ لِسَحْبِ الدَمِ مِنَ الرَأْسِ.

هَبَبْتُ مُسْرِعاً إلى الـمُسْتَشْفَى، وَهُنَاكَ وَجَدْتُ أَخِيْ (**إبْرَاهِيْمَ**) قَـدْ سَـبَقَنِيْ كَعادَتِـهِ فِي مَيَـادِيْنِ الـمَآثِرِ، فَظَلَلْـتُ مَعَـهُ قُـرْبَ غُرْفَـةِ العَمَلِـيَّاتِ سَـاعَاتٍ خَمْـساً نَنْتَـظِرُ نَتِيْجَـةَ العَمَلِـيَّةِ انْـتِـظَـارَ الـمُعْسِرِ لِلْـيُسْرِ.

وَنَـتَحَرَّى خُـرُوْجَ أُمِّـيْ تَحَـرِّيَ الـصَائِمِ لِـسَـاعَـةِ الفِطْرِ.

وَنَتَلَهَّـفُ لِسَمَاعِ بُشْرَى مُبَشِّرٍ عَنْهَـا تَلَهُّـفَ الـمُجْدِبِ لِنُـزُوْلِ القَطْرِ.

بَلْ نَتَرَقَّبُ أَيَّ خَبَرٍ تَرَقُّبَ السَاهِرِ لِطُلُوْعِ الفَجْرِ.

وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ أنَّ للانْتِظَارِ حُرْقَةً تَتَفَطَّرُ لَـهَا الأَكْبَادُ، وَتَشْحَبُ لَـهَا الوُجُوْهُ، إلا فِي تِلْكَ السَاعَاتِ العَسِيْرَةِ التِيْ رَحِمَـنَا فِـيْـهَـا كُـلُّ مَنْ رَآنَـا وَنَـحْـنُ نُـكَـابِـدُ طُـوْلَ الاِنْـتِـظَـارِ: (**وَطُوْلُ الاِنْتِظَارِ ضَرْبٌ مِنْ الـحِدَادِ**).

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَبَعْدَ انْتِظَارٍ مَرِيْرٍ أُخْرِجَتْ أُمِّيْ مِنْ غُرْفَةِ العَمَلِيَّاتِ، وَلَكِنَّهَا مَعَ الأَسَفِ خَرَجَتْ جَسَداً لا حِرَاكَ بِهِ، فَبَقِيْنَا سَاعَاتٍ أُخْرَى خَمْساً نَنْتَظِرُ إِفَاقَتَهَا، وَفِيْنَا يَتَصَارَعُ الغَرِيْمَانِ: الأَمَلُ المُنْتَظَرُ، وَاليَأْسُ المَحْذُوْرُ، فَاحْتَاجَ الفَصْلُ بَيْنَهُمَا إِلَى فُحُوْصَاتٍ جَدِيْدَةٍ وَدَقِيْقَةٍ لأُمِّيْ بِالأَشِعَّةِ المَقْطَعِيَّةِ، لِيَأْتِيَ بَعْدَهَا الخَبَرُ الطِّبِّيُّ الذِيْ يَقْطَعُ الشَكَّ بِاليَقِيْنِ، فَيَجْمَعَنَا أَنَا وَإِخْوَتِيَ الطَبِيْبُ؛ لِيُخْبِرَنَا بَعْدَ أَنْ أَبْرَزَ لَنَا مَا بَذَلَهُ مَعَ زُمَلائِهِ مِنْ جُهُوْدٍ مُضَاعَفَةٍ، بِأَنَّ وَالِدَتَنَا قَدْ أُصِيْبَتْ فِي الجُزْءِ الآخَرِ مِنَ الرَأْسِ بِنَزِيْفٍ أَيْضاً، وَأَنَّ جَلْطَةً دِمَاغِيَّةً كَبِيْرَةً أَصَابَتْهَا، وَأَنَّ الاِحْتِمَالَ الرَاجِحَ لَدَيْهِ هُوَ أَنَّهَا لَنْ تُفِيْقَ، وَأَنَّهَا سَتَظَلُّ عَلَى أَجْهِزَةِ التَنَفُّسِ وَالتَغْذِيَةِ، وَتَحْتَ الرَقَابَةِ الدَقِيْقَةِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُوْلاً:

إِنَّ الطَبِيْبَ لَهُ فِي الطِبِّ مَعْرِفَةٌ
مَا دَامَ فِي أَجَلِ الإِنْسَانِ تَأْخِيْرُ
حَتَّى إِذَا مَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُدَّتِهِ
حَارَ الطَبِيْبُ وَخَانَتْهُ المَقَادِيْرُ[31]

وَلَمْ يكُنْ حِينَذَاكَ أَمَامِيْ وَأَمَامَ إِخْوَتِي المَكْلُوْمِيْنَ مِثْلِي بِهَذا المُصَابِ الجَلَلِ إلا أنْ نَقُوْلَ صابِرِيْنَ مُؤْمِنِيْنَ مُحْتَسِبِيْنَ: (الْلَهُمَّ لا رَادَّ لِقَضَائِكَ وَقَدَرِكَ، وَإنَّا لله وَإنّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ).

وَبَكَى قَلْبِيْ عَلَى حَالِ أُمِّيْ شَجاً وَحُزْناً، وَحَشْرَجَتِ الدُمُوْعُ فِي حَلْقِيْ، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أنـَّهَا سَالَتْ عَلَى الخَدِّ نَدِيَّةً؛ كَيْ تُخَفِّفَ بَعْضاً مِمَّا آلَمَ قَلْبِيْ مِنْ هَذِي البَلِيَّةِ؛ فَإنَّ ذَلِكَ البَوْحَ المَعِيْبَ أَهْوَنُ عَلَى المَرْءِ المَفْجُوْعِ مِنْ جَسْرِ الدُمُوْعِ الدَاخِلِيَّةِ:

يُبَكِّيْ عَلَيْكِ القَلْبُ لا العَيْنُ إنَّنِيْ

أَرَى القَلْبَ أَوْفَى بِالعُهُوْدِ وَأَكْرَمَا[32]

وَمَعَ ذَلِكَ البَلاءِ وَالمُصَابِ صَبَرْتُ صَبْرَ مُحْتَسِبٍ؛ لأنَّ أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ عِنْدَ المَصَائِبِ الصَبْرُ، وَالمَحْبُوْرُ مَنْ حَبَرَهُ الثَوَابُ، وَالخَائِبُ مَنْ أَمِنَ العِقَابَ، وَالصَابِرُ تُعَجَّلُ لَهُ الرَاحَةُ، وَيُؤَجَّلُ لَهُ الثَوَابُ، وَالجَازِعُ يُرَدُّ إلى الصَبْرِ غَيْرَ مُثَابٍ، وَإنَّ حَلاوَةَ الأَجْرِ لَسَوْفَ تُخَفِّفُ بِعَوْنِ الله تَعَالَى مَرَارَةَ الصَبْرِ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

صَـــبَرْتُ لأَنَّ الـــصَبْرَ خَـــيْرٌ مَغَـــبَّةً

وَلا جَـــزَعٌ يُجْـــدِيْ عَـــلَيَّ فَـــأَجْزَعُ

صَـــبَرْتُ عَـــلَى مَـــا لَـــوْ تَحَمَّـــلَ بَعْضَـــهُ

جِـــبَالُ شَرُوْرَى أَصْـــبَحَتْ تَتَـــصَدَّعُ

مَلَكْـــتُ دُمُـــوْعَ العَـــيْنِ ثُـــمَّ رَدَدْتُهَـــا

إِلى نَـــاظِرِيْ فَـــالعَيْنُ فِي القَلْـــبِ تَـــدْمَعُ[33]
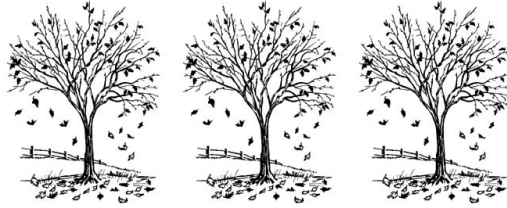
وَعِشْتُ كَمَا عَاشَ إِخْوَتِيْ وَأَخَوَاتِيْ مَا بَيْنَ اليَأْسِ وَبَصِيْصِ الأَمَلِ الذِيْ لا يَنْتَظِرُهُ غَيْرِيْ وَغَيْرُهُمْ، عِشْنَا سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْماً، وَكُنْتُ أُجَاهِدُ خِلالَهَا نَفْسِيْ عَلَى الظَفَرِ بِحَلاوَةِ الإِيْمَانِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَبِمُدَافَعَةِ وَسَاوِسِ الشَيْطَانِ الذِيْ كَانَ مَا يَفْتَأُ يُذَكِّرُنِيْ بِقَوْلِ الشَاعِرِ:

إِذا مَـــا مَـــاتَ بَعْـــضُكَ فَابْـــكِ بَعْـــضاً

فَـــإِنَّ الـــبَعْضَ مِـــنْ بَعْـــضٍ قَرِيْـــبُ[34]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَانَ الشَيْطَانُ الرَجِيْمُ حَرِيْصاً عَلَى أَنْ يَجْذِبَنِيْ إلى حَمْأَةِ اليَأْسِ وَكَآبَةِ القُنُوْطِ.

وَتَوَاصَلَتْ زِيَارَاتِيْ لأُمِّي الـمُسَجَّاةِ عَلَى السَرِيْرِ الأَبْيَضِ، وَكَانَ خِلالَ الزِيَارَاتِ قَلْبِـيَ الشَجِيُّ قَبْلَ لِسَانِيَ النَدِيِّ يُرَدِّدُ بِحَسْرَةٍ وَأَسَى:

أَعْــــزِزْ عَــــلَيَّ بِـــــأَنْ أَزُوْرَكِ عَائِـــــداً

أَوْ أَنْ أَرَى بِــــــــفِنَائِكِ العُـــــــوَّادَا(35)

وَكُنْتُ طَوَالَ أَوْقَاتِ الزِيَارَاتِ الـمَسْمُوْحِ بِهَا عَدِيْمَ الـحَوْلِ والطَوْلِ، لا أَمْلِكُ لأُمِّيْ إلا الدُعَاءَ وَرُقْيَتَهَا بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ الذِيْ مَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُمُرِهَا لِتَفْتُرَ عَنْ سَمَاعِهِ مِنْ خِلالِ إِذَاعَةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، وَكُنْتُ لا أَمَلُّ مِنْ تَقْبِـيْلِ رَأْسِهَا وَجَبِيْنِهَا وَخَدَّيْهَا وَيَدَيْهَا، وَمِنْ ثَمَّ أَخْرُجُ وَالـحُزْنُ يَغْمُرُ قَلْبِـيْ؛ لأَهِيْمَ في غَيْمَةٍ دَاكِنَةٍ مِنَ الكَآبَةِ وَالأَسَى لا تُخْفِيْ حَقِيْقَتَهَا الأَقْنِعَةُ الـمُتَصَنَّعَةُ التِيْ أَلْقَى بِهَا كُلَّ مَنْ أَلْقَاهُ:

تَائِـــــهٌ يَرْقـــــُبُ القـــــَمَرْ

حَـــــائِرٌ زَائــــــغُ البَــــصَرْ

خَـــــائِفٌ سَطـــــْوَةَ القــــَدَرْ

سَــــاهِرٌ مَلـــــَّهُ الــــسَهَرْ

قَلـــــْبُهُ لَفـــــَّهُ الـــــضَجَرْ

ضَــــائِقُ الــــصَدْرِ مُنْكَــــسِرْ

سِرُّهُ ذَاعَ وَانْتَــــــــــــــشَرْ

يَمْــــلأُ الــــسَمْعَ وَالنَظـــــَرْ

حُلـــــْوُهُ الــــصَبْرُ بَـــلْ أَمَــــرْ

مُــــرُّهُ قَطـــــْرَةُ المَطـــــَرْ

صَـــــبْرُهُ خَانَـــــهُ الظـــــَفَرْ

مَـــا مَــعَ الـــمَوْتِ مُـــصْطَبَرْ

زَادُهُ الغَــــــمُّ وَالــــــحَذَرْ

شـــــُرْبُهُ دَمْعَـــــةُ الكـــــَدَرْ

بَوْحُـــــهُ صَرْخـــــَةُ القـــــَهَرْ

صَمْتـــــُهُ أَبْلــــَغُ العِــــبَرْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِنْ شَـــكَا عِيْـــبَ فَانـــتَهَرْ
أَوْ بَكَـــى لِـــيْمَ فَـــازْدَجَرْ
فَلـــتَكُ الحِـــيْلَةُ الـــصَبِرْ[36]

وَمِنْ عَجَائِبِ أَفْكَارِيْ طَوَالَ الأَيَّامِ العَصِيْبَةِ أَنَّنِـيْ فِي مَرَّاتٍ غَيْرِ قَلِيْلَةٍ تَـمَنَّيْتُ أَنْ تَكُوْنَ أُمِّيْ مُقْعَدَةً، إِيْ وَاللهِ تَمَنَّيْتُهَا مُقْعَدَةً؛ حَيْثُ كُنْتُ أَلْتَفِتُ يَمِيْناً وَشِمَالاً حَوْلَ سَرِيْرِهَا نَحْوَ الـمَرْضَى القَابِـعِيْنَ مَعَهَا فِي العِنَايَةِ الـمُرَكَّزَةِ، فَأَرَى مَرِيْضاً مُلازِماً لِسَرِيْرِهِ لا يَسْتَطِيْعُ النُزُوْلَ عَنْهُ؛ مِنَ الضَعْفِ وَالإِجْهَادِ، وَآخَرَ بَلَغَ بِـهِ الإِعْيَاءُ أَنَّـهُ لا يَتَكَلَّمُ إِلا هَمْساً، فَأَتَمَنَّى أَنْ تَعُـوْدَ أُمِّيْ، وَلَـوْ عَلَى مِثْلِ حَالَـةِ هَـذَا، أَوْ مِثْلِ حَالَةِ ذَاكَ.

أَرَأَيْتُمْ قَبْلِي إِنْسَاناً تَـمَنَّى لأُمِّهِ مِثْلَ مَا تَـمَنَّيْتُ لأُمِّيْ؟

أَعَلِمْتُمْ قَبْلِيَ ابْناً بَخِلَ عَلَى أُمِّهِ بِالأَمَانِيِّ الطَيِّبَةِ – وَهِيَ الـمُحْتَاجَةُ إِلَى أَعْظَمَ مِنْهَا – كَمَا بَخِلْتُ أَنَا عَلَى أُمِّيْ؟

عَلَى رِسْلِكُمْ، لا تَعْجَلُوْا فِي عَذْلِيْ وَلا مَلامِيْ؛ إِنَّهُ مِنْ فَرْطِ حُبِّيْ لأُمِّيْ، لَقَدْ كَانَ الشَيْطَانُ يُوَسْوِسُ لِيْ؛ لِيُوْقِعَنِيْ فِي شِرَاكِهِ، فَيَقُوْلُ لِيْ: مَا عَلَيْهِ أُمُّكَ هُوَ مَا عَنَاهُ الشَاعِرُ بِقَوْلِهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[37]

وَكَانَ المُوَسْوِسُ المُوَشْوِشُ (**الشَيْطَانُ**) يُوَسْوِسُ وَيُوَشْوِشُ فِي رُوْعِيْ جَاهِداً، وَيَقُوْلُ لِيْ عَامِداً:

(إِنَّ أُمَّكَ لا حَيَّةٌ فَتُرْجَى، وَلا مَيْتَةٌ فَتُنْسَى)

فَأَدْحَرُهُ رَاضِياً وَقَانِعاً بِأَنْ تَبْقَى لِيَ أُمِّيْ، وَلَوْ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ المُحْزِنَةِ، وَأَقُوْلُ فِي نَفْسِيْ:

(مَا نَزَالُ بِخَيْرٍ مَا بَقِيَ جَسَدُهَا بَيْنَنَا).

وَكُنْتُ فِي كُلِّ حِيْنٍ أَرَاهَا فِيْهِ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ مِنَ السُكُوْنِ الذي لا يُعَدُّ صَاحِبُهُ مِنَ الأَحْيَاءِ وَلا مِنَ الأَمْوَاتِ، أَجِدُ فِي تَقْبِيْلِ يَدَيْهَا وَرَأْسِهَا وَجَبِيْنِهَا لَذَّةً لَمْ أَتَذَوَّقْ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ فَهُوَ السَبِيْلُ الوَحِيْدُ البَاقِي للتَعْبِيْرِ عَنِ المَحَبَّةِ وَالإِعْزَازِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَقَدْ كَانَ النَاصِحُوْنَ يَنْصَحُوْنَنِي بِأَنْ أَسْأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُحْيِيَهَا مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لَهَا، وَأَنْ يَخْتَارَ لَهَا الأُخْرَى مَا كَانَتِ الأُخْرَى خَيْراً لَهَا، وَإِنِّيْ لأَقُوْلُ الآنَ:

وَاللهِ الذِيْ لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّنِي لَمْ تَقْبَلْ نَفْسِيْ أَنْ أَدْعُوَ بِهَذَا الدُعَاءِ المَأْثُوْرِ إلا ظُهْرَ اليَوْمِ الذِيْ فِيْهِ مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَلَسْتُ أَدْرِيْ لِمَاذا اسْتَجَابَتْ نَفْسِيْ لِذَلِكَ، وَقَبِلَتْ بِهِ فِي ذَاكَ اليَوْمِ؟.

وَمَا أَضْعَفَ ابْنَ آدَمَ!!!.

أَجَلْ، مَا أَضْعَفَ ابنَ آدَمَ!!!.

وَمَا أَوْهَنَ حَبْلَهُ!!!.

فَمَعَ جَبَرُوْتِهِ وَسَطْوَتِهِ يَنْتَابُهُ أَحْيَاناً ضَعْفٌ شَدِيْدٌ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذا بَأْسٍ مَرِيْدٍ، فَيَقْنَعُ بِأَقَلِّ القَلِيْلِ الذِيْ كَانَ يَأْنَفُ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ حِيْنَمَا كَانَ يَلْبَسُ لَبُوْسَ ذِي الرَأْيِ الرَشِيْدِ:

فِي أَحَدِ الأَيَّامِ حَرَّكَتْ أُمِّيْ رِجْلَيْهَا حَرَكَاتٍ خَفِيْفَةً لا يُدْرِكُهَا إلا دَقِيْقُ المُلاحَظَةِ لَطِيْفُهَا، فَلا تَسْأَلُوْا عَنِ الأَفْرَاحِ وَالتَبَاشِيْرِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

الـمِلاحِ، لَقَدْ فَرِحَتْ بِـذَلِكَ أَعْـمَاقُ القُلُوْبِ، وَطَـارَتْ بِـالـخَبَرِ الهَوَاتِفُ الـجَوَّالَةُ قَبْلَ الرُكْبَانِ.

وَاليَوْمَ أَقُوْلُ لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَلِكُلِّ مَنْ يُلْقِي السَمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ:

كَمْ مِنَّا مَنْ يُحَرِّكُ كُلَّ أَطْرَافِهِ كَيْفَ يَشَـاءُ....

وَتَـعْـمَلُ كُلُّ حَوَاسِّهِ بِـانْـتِـظَـامٍ كَمَا يُرِيْدُ....

وَيَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ اللهِ آنَـاءَ اللَّـيْـلِ وَالنَهَارِ....

وَمَعَ ذَلِكَ لا يَشْـعُـرُ بِـقِيْمَةِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ!!!

لِـــمَـــاذَا؟

وَلِـــمَـــاذَا؟

ثُمَّ لِـــمَـــاذَا؟

لأنَّــهُ بُنَيُّ آدَمَ؛ يَتَنَعَّمُ مِنَ النِعَمِ بِـمَا لا يُدْرِكُ قَدْرَهُ.

◉ **مَنْ مِنَّا مَنْ إذا رَفَعَ يَدَهُ تَذَكَّرَ أَنَّـهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهَا حَمْداً يُكَافِئُ نِعَمَهُ؟؟؟**

◉ **مَنْ مِنَّا إذا فَتَحَ عَيْنَيْهِ تَـذَكَّرَ أَنَّـهُمَا فَضْلٌ مِنَ اللهِ، فَشَكَرَ اللهَ عَلَيْهِمَا شُكْراً يُوَازِيْ أَفْضَالَهُ؟؟؟.**

◉ مَنْ مِنَّا إذا حَرَّكَ لِسَانَهُ تَذَكَّرَ أنَّهُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ ذِي التفضُّلِ والإنْعَامِ، فَلَمْ يَقُلْ بِهِ إلا حَقّاً وَصِدْقاً؟؟؟.

◉ مَنْ مِنَّا إذا حَمَلَتْهُ رِجْلاهُ تَذَكَّرَ أنَّهُمَا مِنْ آلاءِ اللهِ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَحْمِلاهُ إلا إلى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ؟.

إِيْهِ إِنَّنَا -عِبَادَ الله- نَتَقَلَّبُ في أَرْضِ الله الرَحْبَةِ، وَنَرْفُلُ فِي أَفْيَاءِ نِعَمِهِ وَآلائِهِ، وَلَكِنَّ الغَفْلَةَ دِثَارُنَا، وَالجُحُوْدَ لِحَافُنَا:

◉ كَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غيرُ شَاكِرٍ !

◉ وَكَمْ مِنْ مُبْتَلًى غيرُ صَابِرٍ !

◉ كَمْ يُوَالِيْ لَنَا رَبُّنَا -جَلَّ جلالُهُ- المَكْرُمَاتِ وَالنِعَمَ، وَمَعَ ذَلِكَ لا نَحْمَدُهُ حَقَّ حَمْدِهِ، وَلا نَشْكُرُهُ حَقَّ شُكْرِهِ، وَهُوَ الذِيْ أَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ مَا لا نُحْصِيْهِ، وَنَحْنُ مَعَ ذَلِكَ لَسْنَا نَسْتَحْيِيْ مِنْ كَثْرَةِ مَا نَعْصِيْهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ نِعَمُهُ عَلَيْنَا لا تُحْصَى مَعَ كَثْرَةِ مَا يُعْصَى:

تَعْصِيْهِ وَهْوَ يَسُوْقُ نَحْوَكَ دَائِماً
مَا لا تَكُوْنُ لِبَعْضِهِ تَسْتَأْهِلُ[38]

أَلا مَا أَحْلَمَ الـحَلِيْمَ رَبَّنَا العَفُوَّ الكَرِيْمَ بِـنَا!!!

وَمَا أَجْدَرَهُ بِـالشُّكْرِ عَلَى جَمِيْلٍ نَشَرَهُ، وَعَلَى قَبِـيْحٍ سَتَرَهُ، وَعَلَى عَظِـيْمٍ مَا أَبْلَى، وَعَلَى كَـثِـيْـرٍ مَا عَفَـا !!!

وَهَكَذَا تَتَابَعَتِ الأَيَّـامُ، زِيَـارَاتٍ لأُمِّيَ الـحَبِـيْبَةِ فِي الـصَبَاحِ، وَزِيَارَاتٍ لأُمِّيَ الـحَبِـيْبَةِ فِي الـمَسَاءِ، وَالسُّؤَالُ الـذِيْ لا أَمَلُّ مِـنْ تَوْجِيْهِهِ لِلطَاقَمِ الطِبِّيِّ كُلَّ حِيْنٍ، وَلا يَتَغَيَّرُ، هُـــوَ:

(هَلْ مِنْ أَخْبَارٍ جَدِيْدَةٍ لَدَيْكُمْ عَنْ أُمِّيْ؟)

وَكَانَ الـجَوَابُ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ كَحَالِ أُمِّيْ لا يَتَغَيَّرُ هُوَ أَيْضاً:

(لا جَدِيْدَ؛ فَهِيَ كَحَالِـهَا أَمْسِ).

وَأَقْبَلْتُ بَعْدَ مَغْرِبِ يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ (23/ 5/ 1424هـ) عَلَى الـمُسْتَشْفَى لِزِيَارَةِ الـمَسَاءِ كَالـمُعْتَادِ، وَعِنْدَ بَابِ الـمُسْتَشْفَى رَنَّ هَاتِفِيْ، وَإِذا بِاسْمِ أَبَرِّنَا بِأُمِّهِ (**إِبْرَاهِيْمَ**) يَظْهَرُ عَلَى الشَاشَةِ الصَغِيْرَةِ، وَلَنْ أَقُوْلَ لَكُمْ: إِنَّنِيْ صِرْتُ أَتَوَجَّسُ خِيْفَةً مِنِ اتِّصَالاتِهِ؛ لأَنَّ هَذِهِ ضَرِيْبَةُ بَذْلِ (**أَبِيْ نَوَّافٍ**) نَفْسَهُ بِرّاً بِوَالِدَتِهِ – جَزَاهُ اللهُ خَيْراً– وَلأَنَّهُ جَزَاءُ قُرْبِهِ الـمُسْتَمِرِّ مِنْهَا، وَحِيْنَ سَمِعْتُ صَوْتَهُ يَنْسَلُّ عَبْرَ الأَثِيْرِ مُنْكَسِراً يَقُوْلُ: اتَّصَلَ بِيَ مِنَ الـمُسْتَشْفَى مَنْ يُخْبِرُنِيْ بِأَنَّ أُمِّيْ فِي حَالَةٍ خَطِيْرَةٍ، اسْتَرْجَعْتُ، وَأَسْرَعْتُ الـخُطَى، وَفِي الـمَصْعَدِ سَأَلْتُ رَبِّيْ مِرَاراً الثَبَاتَ، وَيَمَّمْتُ صَوْبَ سَرِيْرِهَا مُسْرِعاً، وَحِيْنَ دَخَلْتُ بَابَ الغُرْفَةِ بَادَرَتْ عَيْنَايَ النَظَرَ إِلى الأَجْهِزَةِ الـمَوْصُوْلَةِ بِجَسَدِ أُمِّيْ، فإِذا هِيَ لا تَحْمِلُ أَرْقَاماً مُتَحَرِّكَةً كَالـمُعْتَادِ، بَلِ ارْتَسَمَتْ عَلَيْهَا عَلامَاتُ اسْتِفْهَامٍ فَقَطْ.....!!!

فَأَدْرَكْتُ أَنَّ أَمْرَ اللهِ الـمَحْتُوْمَ قَدْ وَقَعَ.....

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَسَأَلْتُ الـمُمَرِّضَةَ الـجَالِسَةَ قُبالَةَ أُمِّيْ: (هَلْ مَاتَتْ أُمِّيْ؟)

فَقَالَتْ بِبُرُوْدٍ عَجِيْبٍ: (لا أَدْرِيْ).

وَأنَا أَعْلَمُ أنَّهَا كَانَتْ تَدْرِيْ؛ لأنَّ مِثْلَ ذَلِكَ الأمْرِ لا يُمْكِنُ أنْ يَخْفى عَلَى مِثْلِهَا، وَلَكِنَّهَا تَحَاشَتْ إِخْبَارِيْ، وَلا أَعْرِفُ سَبَباً لِذَلِكَ، لَقَدْ زَعَمَتْ أنَّ الطَبِيْبَ وَحْدَهُ هُوَ الذِيْ يَعْرِفُ، فَذَهَبَتْ لِتَدْعُوَهُ، حَيْثُ جَاءَ مُسْرِعاً، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ السُؤَالَ الخَطِيْرَ مِنْ قَلْبِي الكَسِيْرِ: (هَلْ مَاتَتْ أُمِّيْ؟).

فَقَالَ بِلا تَلَعْثُمٍ وَلا تَهَيُّبٍ؛ شَأْنُهُ شَأْنُ مَنْ لا يَعْنِيْهِ الأَمْرُ مِنْ قَرِيْبٍ وَلا بَعِيْدٍ: (نَعَمْ، مَاتَتْ قَبْلَ ثَلاثِ دَقَائِقَ، وَتَعَالَ إِلَيْنَا في الغُرْفَةِ الـمُجَاوِرَةِ لِمَلْءِ بَعْضِ البَيَانَاتِ !!!).

وَقَفَلَ رَاجِعاً مِنْ حَيْثُ أَتَى، وَتَرَكَنِيْ وَحْدِيْ بِجِوَارِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَنِيْ أنْ أُنَفِّسَ عَنْ بَعْضِ مَشَاعِرِيْ.

وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ؛ إِذِ اسْتَدَارَتْ بِيَ الغُرْفَةُ....

وَضَاقَتْ بِيَ الأَرْضُ البَسِيْطَةُ بِمَا رَحُبَتْ....

وَتـَوارَى فَـضَاؤُهَا الرَحْـبُ الفَـسِيْحُ خَلْـفَ هَـوْلِ فَجِـيْعَتِــيْ بِـأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ تـعَالَـى:

كَـــأَنَّ بِــــلادَ اللهِ في ضِــــيْقِ خَاتـــمٍ

عَــلَيَّ فَــمَا تَــزْدَادُ طُــوْلاً وَلا عَرْضَـــا[39]

بَلْ غَدَتِ الأَرْضُ الفَسِيْحَةُ مِنْ حَوْلِيْ كَسَمِّ الـخِيَاطِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ هِيَ أَضْيَقَ....

مَــا فِي الوُجُــوْدِ أَعَـــزُّ مِــنْ أُمِّــيْ وَقَــدْ

فَارَقْتُهَـــا وَالْقَلْــــبُ غَــــيْرُ جَمَـــادِ

الْقَلْـــبُ يَحْتَمِـــلُ الـــوَدَاعَ فَــإِنْ يَكُـــنْ

لِــــلأُمِّ فَهْـــوَ مُفَتِّــــتُ الأَكْبَـــادِ[40]

وَلَكِنَّ اللهَ بِـحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ثَـبَّتَنِيْ ؛ إِذْ تَذَكَّرْتُ أَنَّ الصَبْرَ الـحَقِيْقِيَّ إِنَّمَا يَكُوْنُ عِنْدَ الصَدْمَةِ الأُوْلَى، وَلَمْ أَنْسَ الثَوَابَ العَظِيْمَ لِلصَابِـرِيْنَ مِنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ

وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]، وَخَشِيْتُ أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَيَّ مُصِيبَتَانِ: فَقْدُ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَفَقْدُ الأَجْرِ؛ فَالـمُصِيْبَةُ وَاحِدَةٌ، فَإِنْ كَانَ فِـيْهَا جَزَعٌ فَهِيَ ثِنْتَانِ: (إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُوْرٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُوْرٌ). فَصَبَرْتُ، وَرَضِيْتُ بِـقَدَرِ اللهِ الـمَحْتُوْمِ؛ (وَأَعْرَفُ النَاسِ بِـاللهِ أَرْضَاهُمْ بِـأَقْدَارِهِ).

وَتَجَلَّدْتُ وَلا شَامِتِيْنَ عِنْدِيْ، وَمَا قُلْتُ سَـاعَتَهَا إلا مَـا يُرْضِــيْ رَبِّيْ -عَزَّ وَجَلَّ-: **(إِنَّـا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِـعُوْنَ، وَالـحَمْدُ للهِ عَـلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهَا رَحْمَةً وَاسِـعَةً، وَاجْعَلْ هَـذَا اليَوْمَ خَيْرَ أَيَّامِهَا، وَاغْفِرْ لَـنَـا وَلَـهَـا، وَلا تَفْتِنَّا بَعْدَهَا)**.

وَلَمْ يَكُنْ بِـيَدِيَ حِـيْـنَـذَاكَ إلا أَنْ أَصْبِـرَ وَأَتَـجَـلَّدَ؛ فَإِنَّـمَا ابْتَلانَـا بِـالـمُصِيْبَةِ الـمُنْعِمُ، وَأَخَذَ مِنَّا الـمُعْطِيْ.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتُنْفِدَتْ مِنْ قِبَلِنَا كُلُّ الـحِـيَلِ وَالأَسْبَابِ هَـا هِــيَ ذِيْ شَمْسُنَا السَاطِعَةُ قَدْ تَوَارَتْ بِـالـحِجَابِ:

إنَّ الطَبِـــــــيْبَ بِـطِبِّــــــهِ وَدَوَائِـــــــهِ

لا يَـــــسْتَطِيْعُ دِفَـــاعَ مَحْـــذُوْرٍ أَتـــــى

مَـــا لِلْطَبِــــيْبِ يَمُــوْتُ بِالــدَاءِ الــذِيْ

قَـــدْ كَـــانَ يُــبْرِيْ مِثْلَـــهُ فِيْمَـــا مَـضَى

ذَهَـــبَ الـــمُدَاوِيْ وَالـــمُدَاوَى وَالـــذِيْ

جَلَـــبَ الـــدَوَاءَ وَبَاعَـــهُ وَمَـــنِ اشْـــتَرَى (41)

وَأَكْبَبْتُ عَلَى أُمِّيَ الحَبِـيْبَةِ أُمْطِرُ رَأْسَهَا وَجبِـيْنَهَا وَيَدَيْهَا قُبلاً حَرَّى كَمَا لَمْ أَفْعَلْ مِنْ قَبْلُ؛ لأَنَّهَا قُبَلُ مُوَدِّعٍ وَدَاعاً أَبَدِيّاً؛ فَلَقَدْ مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَالذِيْ بَقِيَ أَمَامِيْ إنَّمَا هُوَ جَسَدٌ بِلا رُوْحٍ، فَرُوْحُهَا قَدْ صَعَدَتْ لِبَارِئِهَا، وَمَاتَتْ مَعَهَا آمَالُ الأَمْسِ العَرِيْضَةُ وَأَمَانِيْهِ:

وَدَّعْتُهَـــا أَمْـــسِ يَحْـــدُوْنِيْ بَـــصِيْصُ رَجَـــاً

بِـــأَنْ يَكُـــوْنَ غَـــدٌ خَيْـــراً لِمُنْتَظِـــرِ

وَعُـــــدْتُ فِي لَـــــهْفَةٍ أَرْجُـــو انْتِـــبَاهَتَهَا

وَإذْ بِـهَـــا لا تُنَادِيْـــنِيْ: (هَـــلا عُمُـــرِيْ)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلا تَمُـــــدُّ يَـــــداً نَحْـــوِيْ تُعُـــانِقُنِيْ
وَلا تُـــسَائِلُ عَـــمَّا جَـــدَّ مِـــنْ خَـــبَرِيْ
وَجَــــدْتُهَا جَــــسَداً تَكْــــسُوْهُ صُفْرَتُـــــهُ
نُـــوْراً رَهِيْفـــاً سَرَى مِـــنْ جِـــسْمِهَا النَظِـــرِ
فَـــمَا مَلَكْـــتُ انْكِـــبَاباً فَـــوْقَ جَبْهَتِهَـــا
وَخَـــدِّهَا وَالـــجَوَى فِي القَلْـــبِ كَالـــشَرَرِ[42]

أَجَلْ، لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّـي رَحِمَهَـا اللهُ، وَإِنْ لَـمْ يَقْتَنِعْ بِـذَلِكَ (رَيَّانُ)[43] حَفِيْدُهَا ذُوْ الأَعْوَامِ الأَرْبَعَةِ الذِيْ مَا زَال مُصِرّاً عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَمُتْ، وَأَنَّهَا سَتَعُوْدُ؛ لأَنَّهَا بِزَعْمِهِ قَدْ قالتْ لَهُ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ تَكْذِبُهُ: إِنَّنِيْ سَأَذهَبُ إلى الرِيَاضِ، وَسَأَعُوْدُ بعدَ أيَّامٍ إِنْ شاءَ اللهُ.

إِيْ وَرَبِّيْ لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّيْ يَا (رَيَّانُ)، يَا مَنْ تَعَوَّدَ مُنْذُ سَنَتَيْنِ أَنْ لا يَنَامَ إلا فِي حِضْنِهَا، فَيُؤْنِسَ وَحْشَتَهَا حِيْنَ اخْتَارَتِ الخَلْوَةَ، فَكَانَ أَكْثَرُ وَقْتِهَا لا مُحَدِّثَ وَلا جَلِيْسَ وَلا أَنِيْسَ لَهَا سِوَاكَ يَا (رَيَّانُ)،

يَا مَنِ اسْتَأْثَرَتْكَ دُوْنَ سِوَاكَ مِنْ أَحْفَادِهَا وَأَسْباطِهَا بِالكَثِيْرِ مِنْ حُبِّهَا.

أَجَلْ، لَقَدْ مَاتتْ أُمِّيْ يَا (رَيَّانُ)، وَلَنْ تَعُوْدَ إِلَيكَ، وَلَنْ تَنْعَمَ بِحِضْنِهَا، حَتَّى لَوْ كَانَتْ قَالَتْ لَكَ، وَهِيَ الصَدُوْقُ التِيْ لا تَكْذِبُ أَبَداً: إِنَّهَا سَتَذْهَبُ إِلى الرِيَاضِ، وَسَتَعُوْدُ بَعْدَ أَيَّامٍ؛ فَلَئِنْ كَانَتْ قَالَتْ لَكَ هَذَا، وَأَكَّدَتْهُ، لأَفْعَالُهَا يَا (رَيَّانُ)، يَا نَدِيْمَ أُمِّيْ، كَانَتْ - بِلُغَةِ الحَالِ، لا بِلُغَةِ المَقَالِ - تَقُوْلُ لِغَيْرِكَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَلا تَعْلَمُ يَا (رَيَّانُ) يَا حَبِيْبَ أُمِّيْ، أَنَّهَا قَدْ أَعْطَتْ مَنِ اعْتَادَتْ أَنْ يُشَارِكَهَا فِي رِزْقِهَا مِنَ المُحْتَاجِيْنَ نَفَقَاتِ شَهْرَيْنِ مُقَدَّماً؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا لنْ تَعُوْدَ عَاجِلاً مِنَ الرِيَاضِ؟؟؟.

فَأَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَنَا وَعَزَاءَكَ يَا (رَيَّانُ) يَا أَنِيْسَ أُمِّيْ، وَجَبَرَ اللهُ مُصَابَنَا وَمُصَابَكَ؛ فَلَقَدْ فَقَدْنَا وَفَقَدْتَ عَزِيْزاً.

أَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَنَا وَعَزَاءَكَ يَا (رَيَّانُ)؛ فَهَذَا أَمْرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ الذِيْ كَتَبَهُ عَلَى خَلْقِهِ.

وَإِنَّا للهِ وإنّا إِلَيْهِ رَاجِـعُوْنَ رُجُوْعَ مَـنْ سَـلَّمَ لأَمْـرِهِ، وَاسْتَسْلَمَ لِـحُكْمِـهِ، وَرَضِيَ بِـقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَعَلِمَ أنَّ مَقَادِيْرَ الآجَالِ عِنْـدَهُ مَعْلُوْمَةٌ، وَمجَارِيَ الأَفْعَالِ مِـنْـهُ غَيْرُ مَدْفُوْعَةٍ.

وَشَاخَ الطِفْلُ فَجْأَةً

عُدْنَا إلى الـمُسْتَشْفَى بَعْدَ سَاعَتَيْنِ لِتَسَلُّم جُثْمَانِ أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ؛ لِنَقْلِهِ إلى القَصِيْمِ؛ لِنُوَارِيَهُ الثَرَى هُنَاكَ، وَقَدْ عَجِبْنَا كَيْفَ لا تَرِقُّ قُلُوْبُ العَامِلِيْنَ في مَرَاكِزِ حِفْظِ الـمَوْتَى بِالـمُسْتَشْفَيَاتِ؛ لَقَدْ رَأَيْنَا فِيْهِمْ مِنَ الفَظَاظَةِ وَالغِلْظَةِ مَا لا يُحْمَدُوْنَ عَلَيْهِ!!

عَجَباً لَهُمْ أَلا يَعْتَبِرُوْنَ؟ أَلا يَكْفِيْهِمْ الـمَوْتُ زَاجِراً وَوَاعِظاً؛ فَالـمَوْتُ ذُوْ عِبَرٍ لِمَنْ يَتَدَبَّرْ:

فِي عِبْرَةِ الـمَوْتِ آيَاتٌ لِمُعْتَبِرِ
وَفِي زَوَاجِرِهِ رَدْعٌ لِمُزْدَجِرِ (44)

أَمْ تَرَاهُمْ لا قُلُوْبَ لَهُمْ؟ أَمْ أَنَّ كَثْرَةَ الإِمْسَاسِ تُقَلِّلُ، بَلْ رُبَّمَا تُمِيْتُ، الإِحْسَاسَ؟ وَهَذَا مَا أُرَجِّحُهُ فِيْهِمْ وَفِيْ أَكْثَرِ أَطِبَّاءِ العِنَايَةِ الـمُرَكَّزَةِ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُمْ:

وَمَنْ لَمْ يَعِظْهُ الـمَوْتُ لَمْ يَتَّعِظْ إِذَنْ
كَفَى وَاعِظاً بِالـمَوْتِ غَادٍ وَرَائِحُ (45)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

حَمَلْنَا أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُسَجَّاةً في السَيَّارَةِ، وَوَجَدْتُ فِيْ نَفْسِيْ رَغْبَةً وَشَجَاعَةً بِأَنْ أَكُوْنَ أَقْرَبَ إِخْوَتِيْ إِلَيْهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا رَحِمَهَا اللهُ، وَقَدْ كُنْتُ أَبْعَدَهُمْ مِنْهَا مَكَاناً فِيْ حَيَاتِهَا؛ بِسَبَبِ بُعْدِ مَكَانِ عَمَلِيْ.

لَقَدِ اِخْتَرْتُ أَنْ أَقُوْدَ السَيَّارَةَ التِيْ تَحْمِلُ بَقِيَّةَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

وَكَانَ الحَالُ طَوَالَ الطَرِيْقِ بِسَاعَاتِهِ الأَرْبِعِ مُغْرِياً بِالوُجُومِ وَالصَمْتِ مِنِّيْ وَمِنْ رَفِيْقِ سَفَرِيْ (أَبِيْ رَامِيْ) جَزَاهُ اللهُ خيراً، وُجُومٌ وَصَمْتٌ أَبْحَرَا بِسَفِيْنَةِ ذِكْرَيَاتِيْ عُقُوْداً خَمْسَةً مِنَ السِنِيْنَ المَاضِيَةِ، حِيْنَمَا كَانَ هُنَاكَ رَضِيْعٌ يَلْتَقِمُ ثَدْيَ أُمِّهِ الرَؤُوْمِ التِيْ تَضُمُّهُ إِلَى حِضْنِهَا بِحُبٍّ وَحَنَانٍ، وَلَيْسَ فِي العَالَمِ وِسَادَةٌ أَنْعَمُ مِنْ حِضْنِ الأُمِّ، وَلا مَلاذٌ آمَنُ لِلطِفْلِ مِنْ حِضْنِ أُمِّهِ؛إِذْ لَنْ يُذْهِلَهَا عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ شُؤُوْنِ الدُنْيَا مَهْمَا عَظُمَ شَأْنُهُ إِلا قِيَامُ السَاعَةِ لَوْ قَامَتْ:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحجّ: 2].

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَيَمُرُّ قِطَارُ الذِكْرَيَاتِ بِـهَا حَيْثُ يَـمْرَضُ وَلِـيْدُهَا حَتَّى يُشْرِفَ عَـلَى الهَـلاكِ، وَهُـوَ لا يَكَـادُ يُفَـارِقُ كَتِفَهَـا تَأَلُّـمَاً وَبُكَـاءً، وَهِـيَ لا يَغْـمَضُ لَـهَـا جَفْـنٌ، وَلا يَرْقَأُ لَـهَـا دَمْعٌ، وَلا يَهْنَأُ لَـهَـا عَيْشٌ، وَلا يَسْكُنُ حُزْنُهَا، وَلا يَنْقَطِعُ هَمُّهَا، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِـكَ كُلِّـهِ تَـصْبِـرُ عَـلَى تَعَبِـهِ، وَتَأْسَى عَلَى شَقَائِهِ؛ لأَنَّـهَا أُمُّـهُ؛ وَمَـنْ مِـثْـلُ الأُمَّهَاتِ؟.

أَلا مَا أَصْدَقَ قَوْلَ إِحْدَاهُنَّ عَنِ الوَالِدَاتِ كُلِّهِنَّ:

(مَا أَمَضَّ حَرَارَةَ قُلُوْبِـهِنَّ!

وَأَقْـلَـقَ مَضَـاجِـعَـهُنَّ!

وَأَطْـوَلَ لَـيْـلَـهُـنَّ!

وَأَقْـصَـرَ نَـهَـارَهُـنَّ!

وَأَقَـلَّ أُنْـسَـهُـنَّ!

وَأَشَـدَّ وَحْـشَـتَـهُنَّ!

وَأَبْعَـدَهُـنَّ عَـنِ الـسُرُوْرِ!

وَأَقْرَبَهُنَّ مِـنَ الأَحْزَانِ!!!).

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَتَدُوْرُ الأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَظِلِّ غَمَامَةٍ صَيْفِيَّةٍ، فَيَكْبُرُ طِفْلُهَا، فَيَصِيْرُ غُلاماً، ثُمَّ يَتَرَعْرَعُ فَتًى، ثُمَّ يَشْتَدُّ شَابّاً، ثُمَّ يَبْلُغُ أَشُدَّهُ رَجُلاً، وَلَكِنَّ أُمَّهُ ثَابِتَةٌ لا تَتَزَحْزَحُ فِي مُعَامَلَتِهِ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ حَنَانُهَا عَلَيْهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ إلا أَنَّهُ اِزْدَادَ رِقَّةً، وَلَمْ يَنْقُصْ، بَلْ هُوَ فِي ازْدِيَادٍ، حَتَّى وَهُوَ الذِيْ مَا فَتِئَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15]....

أَجَلْ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَجَاوَزَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَأَمْسَى أَباً مَهِيْباً، وَمَعَ ذَلِكَ لا تَخَالُهُ فِي عَيْنِ أُمِّهِ إلا طِفْلاً:

مَا زِلْتُ طِفْلاً عِنْدَهَا حَتَّى وَإِنْ
أَلْقَيْتُ فِي بَحْرِ المَشِيْبِ شِبَاكِيْ[46]

إِذْ مَا زَالَتْ أُمُّهُ حَرِيْصَةً عَلَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ هَذَا كَثِيْراً، وَأَنْ يَشْرَبَ مِنْ ذَاكَ كَأْساً مَرِيْئاً، وَأَنْ يَزِيْدَ مِنْ هَذَا قَلِيْلاً، وَأَنْ لا يُبْقِيَ مِنْ ذَاكَ فَتِيْلاً !!!

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَكَمْ تَنَاوَلَ طَعَاماً شَهِيّاً طَيَّبَتْهُ يَدُ أُمِّهِ التِيْ تَظَلُّ جَالِسَةً طَوَالَ وَقْتِهَا إلى جِوَارِهِ تَمْلأُ مِنْهُ عَيْنَيْهَا، وَتَنْتَقِيْ لَهُ أَطْيَبَ أَطَايِبِ طَعَامِهَا بِيَدَيْهَا.

وَكَمْ تَنَبَّهَ عَلَيْهَا مِنْ نَوْمِهِ وَأَنَامِلُهَا الشَفِيْقَةُ الحَانِيَةُ تَتَأَكَّدُ مِنْ أنَّ الغِطَاءَ عَلَيْهِ ضَافٍ!.

وَكَمِ انْسَلَّتْ إلى غُرْفَتِهِ تَتَهَادَى في جُنْحِ الظَلامِ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهَا تَتَحَسَّسُ طَرِيْقَهَا؛ لِتَتَأَكَّدَ مِنِ اعْتِدَالِ وِسَادَتِهِ، وَتَتَلَمَّسَ وُجُوْدَ كَأْسِ المَاءِ قُرْبَ فِرَاشِهِ!:

إنْ نَامَ لَمْ تَهْجَعْ وَطَافَتْ حَوْلَهُ
فَيَبِيْتُ مَكْلُوْءاً بِهَا مَرْصُوْدَا[47]

وَأَمَّا إنْ مَرِضَ فَلا تَسَلْ عَنْ حَالِهَا كَيْفَ سَيَصِيْرُ حِيْنَذَاكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَمَسُّهَا أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا أَصَابَهُ مِنَ السِقَامِ، مَعَ شَيْءٍ غَيْرِ قَلِيْلٍ مِنَ الغَمِّ وَالهَمِّ:

إذا مَسَّني سُقْمٌ ثَوَتْ عِنْدَ مَرْقَدِيْ
لِزَاماً فَلَمْ تَبْرَحْهُ إلا مَعَ السُقْمِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

عَــلَى أنــَّـهَا وَالــسُّقْمُ يَــبْرِيْ عِظَــامَهَا
تُحَــاوِلُ أنْ تُخْــفِيْهِ عَنِّــيَ بِـــالكَتْمِ
وَلَــوْ أنــَّهَا اسْـطَاعَتْ لَـدَى الـمَوْتِ خُفْيَـةً
لأَخْفَتْــهُ إشْــفَاقاً عَــلَيَّ مِــنَ الغَــمِّ[48]

وَهَا هِيَ ذِيْ مَا زَالَتْ تَحُوْطُهُ بِالعِنَايَةِ والاهْتِمَامِ؛ فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الحَرِّ، وَتَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ القُرِّ؛ فَكَمْ سَأَلَتْهُ: أَلَيْسَ الجَوُّ حَارّاً؟ أَنُشَغِّلُ المُكَيِّفَ أَوِ المِرْوَحَةَ؟

وَكَمْ دَنَتْ مِنْهُ تَتَحَسَّسُ مَدَى سَمَاكَةِ ثِيَابِهِ فِي الشِّتَاءِ؛ لِتَتَيَقَّنَ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى أَنْ تَحْمِيَهُ مِنَ البَرْدِ!!!

وَكَمْ قَضَى مِنَ الأَيَّامِ أيَّاماً مَاتِعَةً بِقُرْبِهَا، يَنْعَمُ فِيْهَا بِأَعْذَبِ الحَنَانِ، حَيْثُ كَانَتْ أُمُّهُ تَخْتَرِعُ فِيْهَا مِنْ جَدْبِ المَعِيْشَةِ خِصْباً خَصِيْباً، وَمِنْ سَمُوْمِ الصَيْفِ نَسِيْماً عَلِيْلاً، وَمِنْ زَمْهَرِيْرِ الشِتَاءِ دِفْئاً حَرِيْزاً، وَكُلُّ ذَلِكَ يَنْسَابُ كَالرَقْرَاقِ بَيْنَ الحَصَى مِنْ نَفْسٍ رَضِيَّةٍ نَقِيَّةٍ بِطَرَائِقَ عَجِيْبَةٍ تَسْلُبُ العُقُوْلَ، لا تَعْرِفُهَا وَلا تُتْقِنُهَا إلا قُلُوْبُ الأُمَّهَاتِ وَحْدَهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُمِّـيْ إذا نَـادَيْـتُ يَـا أُمِّـيْ تَـضَـاءَلَتِ الـحُرُوْفُ مِـنْ جَلالِـكْ
أُمِّـيْ إذا حَـمَلَتْـنِيَ الأَشْـوَاقُ طَـارَتْ بِـيْ وَحَلَّـتْ في جَنَابِـكْ
أُمِّيْ إذا انْهَمَرَ السَحَابُ عَـلَى الرَوَابِـيْ يَغَـارُ مِنْ سَـيْبِ نَوَالِـكْ
هَـذِي الجـدَاوِلُ تَحْـتَ أفْـيَاءِ النَخِيْـلِ كَأَنَّـهَا رِقَـةُّ حَالِـكْ
هَـذَا الـرَبِيْـعُ جَـمَالُهُ وَنَـسِيْمُهُ وَعَبِيْـرُهُ بَعْـضُ بَهَائِـكْ
هـذَا الـمَسَاءُ نُجُـوْمُهُ وَسُكُوْنُهُ وَسَنَاؤُهُ صِنْـوُ خِلالِـكْ
أنْـتِ الحَنَـانُ وَأيُّ تَحْنَـانٍ سِـوَاهُ فَـإِنَّهُ فَيْـضُ حَنَانِكْ
أنْـتِ الـنَقَـاءُ إذا تَـكَدَّرَتِ القُـلُوْبُ فَلا نَقَـاءَ سِـوَى نَقَائِـكْ
أنْـتِ الـضِيَاءُ إذا ادْلَهَـمَّ الكَـرْبُ أَشْرَقَ حَوْلَنَا نُـوْرُ ابْتِهَالِـكْ(49)

وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيْرٌ مِـمَّا لَـمْ تَزَلْ تَفعَلُهُ مَعَهُ مُنْذُ كَانَ في بِـدَايَةِ العَقْدِ الأَوَّلِ مِنْ عُمُرِهِ؛ لأنَّ قَلْبَهَا قَلْبُ أُمٍّ؛ وَقُلُوْبُ الأُمَّهَاتِ لا تَشِيْخُ أَبَداً، وَلا تَعجِزُ، وَلا تَهرَمُ، وَلا تَشِيْبُ، وَلا تَتَوَانَى، وَلا تَضْعُفُ.

وَلَقَدْ كَادَتْ نَفْسُهُ تُوهِمُهُ أَنَّهُ حَقّاً مَا زَالَ طِفْلاً؛ فَقَدِ اسْتَمْرَأَتْ رُوْحُهُ الـحَنَانَ، وَأَلِفَتْهُ، وَاسْتَعْذَبَتِ نَفْسُهُ الرِعَايَةَ الـخَاصَّةَ وَالدَلالَ العَذْبَ وَالـحَفَاوَةَ الـمُمَيَّزَةَ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

طِفْلٌ تَخَطَّى الأرْبَعِيْنْ
عَشْراً وَيَهْفُو لِلْحَنِيْنْ
لَمْ يَرْوَ مِنْ عَذْبِ المَعِيْنْ
لَمْ يَدْرِ عَنْ كَرِّ السِنِيْنْ
يَشْتَاقُ لِلْحِضْنِ الأَمِيْنْ
يَأْوِيْ إلى الرُكْنِ الرَكِيْنِ
فَالأُمُّ مَأْوًى لِلْبَنِيْنْ[50]

وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ في حِكْمَتِهِ: (يَظَلُّ الرَجُلُ طِفْلاً حَتَّى تَمُوْتَ أَمُّهُ، فإذا مَاتَتْ شَاخَ فَجْأَةً):

وَيَحْمِلُنِي الحَنِيْنُ إلَيْكِ طِفْلاً
وَقَدْ سَلَبَ الزَمَانُ الصَبْرَ مِنِّيْ
وَأُلْقِيْ فَوْقَ صَدْرِكِ أُمْنِيَاتِيْ
وَقَدْ شَقِيَ الفُؤَادُ مَعَ التَمَنِّيْ
غَرَسْتُ الدَرْبَ أَزْهَاراً بِعُمْرِيْ
فَخَيَّبَتِ السِنِيْنُ اليَوْمَ ظَنِّيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَسْــــلَمْتُ الزَمَـــانَ زِمَـــامَ أَمْـــرِيْ

وَعِـــشْتُ العُمْـــرَ بِـالـــشَكْوَى أُغَنِّـــيْ

وَكَـــانَ العُمْـــرُ فِي عَيْنِـــيَكِ أَمْنـــاً

وَضَـــاعَ العُمْـــرُ يَـــوْمَ رَحَلْـــتِ عَنِّـــيْ[51]

فَهَأَنَذَا لا أَسْتَطِيْعُ أنْ أَلْتَفِتَ وَرَائِيْ؛ لأُلْقِيَ نَظْرَةً عابِـرَةً عَلَى بَقِيَّةِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ لِئَلاَ يَرُوْعَهَا مَنْظَرِيْ بَعْدَ أنْ شِبْتُ فَجْأَةً؛ فَمَنْ كَانَ يُضْفِيْ عَلَيَّ حَنَاناً وَدَلالاً هَا هُوَ ذا جَسَداً مُسَجًّى مَعِـيَ في السَيَّارَةِ... جَسَداً سُحِبَتْ عَلَيْهِ أَذْيَالُ الفَنَاءِ، وَيَنْتَظِرُهُ البِلَى تَحْتَ الثَرَى بَعْدَ أنْ فَارَقَتْهُ الرُوْحُ الطَيِّبَةُ:

يَـــا أَطْيَـــبَ الأَهْـــلِ رُوْحـــاً ضَـــمَّهُ بَـــدَنٌ

أَسْـــــتَوْدِعُ اللهَ ذَاكَ الـــــرُوْحَ وَالبَـــــدَنا[52]

أُمَّـــاهُ..... آهٍ.....

ثُـمَّ آهٍ..... ثُـمَّ آهٍ..... ثُـمَّ آهٍ.....

لَقَدْ أَتـعْبْتُـكِ يَا أُمَّـــاهُ بِأَمْرَاضِيْ صَغِيْراً....

وَلَقَدْ أَشْقَيْتُكِ يَا أُمَّـاهُ بِـالـفِـرَاقِ كَبِـيْراً....

كَـــمْ لَيْلَـــةٍ مِـــنْ لَيَالِـــي العُمْـــرِ دَاجِـــيَةٍ
تَنَـــامُ عَيْنِـــيْ وَيُـــضْنِيْ عَيْنَـــكِ الأَرَقُ
وَكَـــمْ سَـــكَبْتِ دُمُـــوْعَ الـــشَوْقِ سَـــاخِنَةً
مَـــدَى غِيَابِـــيْ وَأَدْمَـــى طَرْفَـــكِ القَلَـــقُ
يَـــا وَرْدَةً مَـــا تَـــسَنَّى عِطْرُهَـــا أَبَـــدَاً
يَفُـــوْحُ مِنْهَـــا عَـــلَى طُـــوْلِ الـــمَدَى عَبَـــقُ
يَـــا نَحْلَـــةً تَعْـــشَقُ الأَزْهَـــارُ طَلْعَتَهَـــا
بَهِـــيَّةً عِنْـــدَمَا يَبْـــدُوْ لَهَـــا الفَلَـــقُ
يَـــا بُلْـــبُلاً بَـــذَرَ الأَنْـــغَامَ فِي شَجَنِـــيْ
مِـــنْ صَـــوْتِهِ نَاصِـــعُ التَحْنَـــانِ يَنْبَـــثِقُ
يَـــا كَوْثَـــرَاً كَـــمْ رَوَى قَلْبِـــيْ بِـــرِقَّتِهِ
فَمِنْـــهُ يَـــصْطَبِحُ الـــصَادِيْ وَيَغْتَبِـــقُ
يَـــا نَخْلَـــةً شَـــمَخَتْ فِي هَـــامِ قَافِيَتِـــيْ
وَعِطْفُهَـــا لِمَعَانِـــيْ هَاجِـــسِيْ طَبَـــقُ (53)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَغَفَرَ لَكِ، وَأَسْكَنَكِ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ ؛ فَالقَلَمُ يَعْجِزُ عَنِ البَيَانِ، وَلَمْ يَبْقَ خَيْرٌ مِنَ الدُعَاءِ لَكِ بِالعَفْوِ وَالرِضْوَانِ مِنْ لَدُنِ الرَحِيْمِ الرَحْمَنِ ذي العَطَاءِ المَنَّانِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَلا مَنْ ذا لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

الأُمَّهَاتُ بِلا رَيْبٍ أَرَقُّ النَاسِ قُلُوْباً....

وَأَعْظَمُهُمْ رَحْمَةً....

وَأَصْدَقُهُمْ مَوَدَّةً....

وَلَكِنْ مَنْ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

وَقَبْلَ أَنْ يُقَالَ لِيْ كَمَا يُقَالُ لِابْنَتِيْ حِيْنَ تُعْجَبُ بِأَبِيْهَا: (**كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيْهَا مُعْجَبَةٌ**)، أُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّنِيْ لا أَعْرِفُ اليَوْمَ أُمّاً في الدُنْيَا كَأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ فَمَا أُمِّيْ كَمِثْلِ الأُمَّهَاتِ؛ وَلَنْ أَقُوْلَ مَا تَقُوْلُهُ الأَمْثَالُ: (مَا كُلُّ التُرَابِ عَسْجَدٌ، وَلا كُلُّ الحَصَى زَبَرْجَدٌ) ؛ لأَنَّ فِي كُلٍّ خَيْراً.

وَلَكِنْ لا رَيْبَ عِنْدِيْ أَنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- لَنْ يَسْتَطِيْعَ قَلَمِيْ مَهْمَا بَرَعَ حَامِلُهُ أَنْ يُحِيْطَ بِمَا فِيْهَا مِنَ الشَمَائِلِ وَالمَآثِرِ وَالصِفَاتِ وَالمَزَايَا.

أَتُرَوْنَنِيْ سَأَقُوْلُ عَنْ أُمِّيْ -غَفَرَ اللهُ لَهَا-:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَهَــا فِي نَــوَادِيْ كُــلِّ مَــكْــرُمَــةٍ ذِكْــرُ[54]

أَمْ أَهْتِفُ مُفَاخِراً بِـهَا -طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهَا-:

هِــيَ النُبْــلُ وَالإِحْــسَانُ وَالزُهْــدُ وَالطُهْــرُ[55]

أَمْ أَصْدَحُ مُنْشِداً فِـيْهَا -رَفَعَ اللهُ مَنْزِلَتَهَا فِي الـجَنَّةِ -:

هِــــيَ الــــجُوْدُ فِي أَعْــلَى مَرَاتِــبِ بَذْلِـــهِ

هِــيَ الــمَكْرُمَاتُ البِــيْضُ وَالـشِيَمُ الغُــرُّ[56]

أَمْ أَشْدُوْ مُتَرَنِّماً فِـيْهَا -فَرَّجَ اللهُ عَنْهَا كُرُبَاتِ الآخِـرَةِ -:

هِــــيَ بَــــرَّةٌ تَهْــوَى الجَمِـــيْلَ تَقَرُّبـــاً

وَيَــــــشُوْقُهَا فِي ذَلِـــــكَ الأَجْـــــــرُ

هِــــيَ عَفَّــــةٌ تَأْبـــــَى وَتَـــسْمُوْ عِــــزَّةً

عَــــنْ كُــــلِّ مَـــا لا يَرْتَــضِي الطُهْــرُ[57]

إِنَّ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِـذَلِكَ فَلا مِـرَاءَ فِيْ أَنَّ الوَصْفَ مَهْمَا بَرَعَ الوَاصِفُ فِـيْهِ نَثْـراً أَوْ شِعْراً سَيَقْـصُرُ قَطْعـاً دُوْنَهَا؛ وَالبَلِيْغُ قَدْ يَعْيَا بِـبَلاغَتِهِ إذا كَانَ مَنْ يُثْنِيْ عَلَيْهِ أَخَا البَحْرِ:

أُثنِـــيْ عَلَيْـــكِ بِـــمَا اسْـــتَطَعْتُ وَرُبَّـــمَا

يُعْيِـــي البَلِـــيْغَ جَلالَـــةُ الـــمَمْدُوْحِ[58]

✿ مَاتَ الأَبُ، وَتَرَكَ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ صِغَاراً:

زُغْـــبَ الـــحَوَاصِلِ لا مَـــاءٌ وَلا شَـــجَرُ[59]

أَكْبَرُهُمْ لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، وَأَصْغَرُهُمْ لَمْ يَبْلُغِ الفِطَامَ.

تَرَكَهُمْ أَبُوْهُمْ فِي زَمَنِ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، فَقْرٍ أَذَابَ الشَحْمَ، وَأَكَلَ اللَحْمَ، وَبَرَى العَظْمَ....

فَمَنْ كَانَ لِهَؤُلاءِ الأُصَيْبِيَةِ الصِغَارِ بَعْدَ اللهِ تَعَالَى حِيْنَمَا رَحَلَ كَاسِبُهُمْ وَمُرَبِّيْهِمْ (أَبُوْهُمْ) رَحِمَهُ اللهُ؟

لَقَدْ قَيَّضَ اللهُ لَهُمْ أُمّاً رَؤُوْماً كَانَتْ لَهُمْ نِعْمَ الأُمُّ الحَفِيَّةُ، وَنِعْمَ الأَبُ العَطُوْفُ....

لَـــكِ اللهُ يَـــا أُمَّـــاهُ كَـــمْ كُنْـــتِ مَـــوْئِلاً

يَطُـــوْفُ اليَتَـــامَى حَوْلَـــهُ كَـــالبَرَاعِمِ

وَكُنْتِ لَهُمْ عِنْدَ المَآسِيْ طَبِيْبَةً
تُدَاوِيْ جِرَاحَاتِ الأَسَى كَالمَرَاهِمِ(60)

لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الأُمُّ لَهُمْ سَماءً ظَلِيْلَةً، وَأَرْضاً ذَلِيْلَةً...

وَلَقَدْ صَبرَتْ عَلَى محِنِ الزَمَانِ وَعَلَى نَوَائِبِ الدَهْرِ أَمَلاً فِيْ أَنْ يُنْبِتَهُمُ اللهُ – جَلَّ جَلالُهُ – نَبَاتاً حَسَناً:

فَكَمْ شَقِيَتْ؛ لِيَرْتَاحُوْا.... وَكَمْ سَهِرَتْ؛ لِيَنَامُوْا....

وَكَمْ بَكَتْ؛ لِيَضْحَكُوْا....

وَكَمْ جَاعَتْ؛ لا لِيَشبعُوا، بَلْ رَجَاءَ أَنْ يَتَخَفَّفُوا مِنْ لأْوَاءِ الجُوْعِ.

وَكَمْ تَشَاغَلَتْ عَنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي غَدَائِهِمْ وَعَشَائِهِمْ رَغْبَةً فِي شِبَعِهِمْ، فلا يَبْقَى لَهَا شَيْءٌ، فَتَبِيْتُ طَاوِيَةً لَيَالِيَ مُتَتَابِعَةً، وَهُمْ فِي غَفْلَتِهِمْ بِهَا لا يَشْعُرُوْنَ.

كَانَتْ إِنْ غَضِبُوا أَرْضَتْهُمْ....

وَإِذَا سَأَلُوْا أَعْطَتْهُمْ....

وَإِذَا سَكَتُوْا ابْتَدَرَتْهُمْ....

لَقَدْ جَعَلَتْهُمْ قَلْبَهَا، وَمُخَّ عِظَامِهَا، وَطَرْفَهَا، وَعَيْنَيْهَا، فَحَفِظَتْ بِهِمْ أَمَانَةً فِي زَمَنٍ تَضِيعُ فِيْهِ مِنَ الأَمِيْنِيْنَ الأَمَانَاتُ، وَكَفَلَتْ أَيْتَاماً فِي وَقْتٍ شَغَلَتْ كُلَّ إِنْسَانٍ نَفْسُهُ.

وَحِيْنَ حَقَّقَ اللهُ أَمَلَهَا فِيْهِمْ لَمْ يَزَلْ لِسَانُهَا لاهِجاً بِحَمْدِ اللهِ وَشُكْرِهِ عَلَى تَوْفِيْقِهِ، ومُرَدِّداً دُوْنَ فُتُوْرٍ وَلا وَهَنٍ:

(الحَمْدُ للهِ؛ لَيْسَتْ نَدَامَةً؛ فَقَدْ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيَّ بِهِمْ):

عِصَامِيَّةٌ كَانَتْ عَلَى حِيْنِ أَنَّهَا
لَهَا نَسَبٌ فَوْقَ النَّقِيْصَةِ وَالذَّمِّ
وَأُمِّيَّةٌ كَانَتْ وَلَكِنَّ رَأْيَهَا
لَدَى مُعْضِلاتِ المُرِّ فَوْقَ ذَوِيْ العِلْمِ[61]

أَتَدْرُوْنَ مَنْ هِيَ تِلْكَ الأُمُّ؟

إِنَّهَا أُمِّيْ.....

فَمَنْ مِنْكُمْ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

۞ لَقَدْ تفكَّرْتُ وَتَدبَّرْتُ قَوْلَ الرَسُوْلِ ﷺ: **(لا تَزُوْلُ قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:**

عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ؟.

وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلاهُ؟.

وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أينَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟.

وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذا عَمِلَ فِيْهِ؟).

وَتَأَمَّلْتُ حَالَ **(أُمِّ عبدِالله)** وَكَيْفَ سَتُجِيْبُ عِنْدَ السُؤَالِ؟

فَوَجَدْتُها قَدْ أَفنَتْ عُمُرَهَا صِياماً في النَهارِ؛ لِحَرِّ يَوْمِ النُشُوْرِ، وَقِياماً في اللَيْلِ؛ لِوَحْشَةِ القُبُوْرِ.

كَانَتْ تَصُوْمُ في الهَوَاجِرِ حَتَّى نُشْفِقَ عَلَيْهَا، فَإذا رَجَوْنَاهَا أنْ تَرْحَمَ ضَعْفَهَا قَالَتْ:

(وَمَا يُدْرِيْكُمْ؟ رُبَّمَا لا أَصُوْمُ غَيْرَهُ !!!).

وَكَانَتْ لا تَنامُ مِنَ اللَيْلِ إلا أَقلَّهُ؛ ومَنْ طَلَبَ المَحَلَّ الأَثِيْرَ هَجَرَ المَضْجعَ الوَثِيْرَ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ **(أُمُّ عبدِالله)** تَقْضِي اللَيْلَ

صَلاةً وَتَسْبِـيْحاً وَدُعَاءً، وَسَمَاعاً لِلْقُرْآنِ الكَرِيْمِ مِنْ إِذَاعَتِـهِ، وَمُتَابَعَةً لِبَرَامِجِـهَا النَافِعَةِ؛ لأَنَّ إذاعَةَ القرآنِ الكَرِيْمِ كَانَتْ نَافِذَتَهَا الوَحِيْدَةَ عَلَى العِلْـمِ وَالعَالَـمِ.

وَكَانَـتْ لا يَفُوْتـُهَا مَوْسُـمُ الـحَجِّ وَلا الـمَوَاسِمُ الفَاضِـلَةُ لِلعُمْرَةِ، وَهِيَ قَادِرَةٌ، فَلَقَـدْ حَجَّـتْ وَاعْتَمَـرَتْ عَشَرَاتِ الـمَرَّاتِ حَجّاً وَعُمْرَاتٍ عَنْ نَفْسِهَا وَعَنْ وَالِدَيْهَا، بَـلْ حَتَّى عَـنْ أَجْـدَادِهَا، تَقَبَّلَ اللهُ مِـنْهَا:

لِيَبْكِـكِ كُـلُّ يَـوْمٍ صُـمْتِ فِـيْهِ

مُـصَابَرَةً وَقَـدْ حَمِـيَ الهَجِـيْرُ

لِيَبْكِـكِ كُـلُّ لَيْـلٍ قُـمْتِ فِـيْهِ

إِلَى أَنْ يَبْـدُوَ الفَجْـرُ المُنِـيْرُ(62)

وَأَمَّا شَبَابُهَا فَلَـمْ تَتَنَعَّمْ بِـهِ، بَـلْ أَبْلَتْـهُ كَـدْحاً وَدَأَباً عَـلَى كَفَالَـةِ الأَيْتَامِ فِي طُهْرٍ وَعَفَافٍ؛ فَلَقَدْ أَلْـهَمَهَا اللهُ حُـبَّ الطَاعَـةِ، وَأَلْزَمَهَـا كَـنْزَ القَنَاعَةِ، فاشْتَرَتِ الآخِرَةَ بِـالأُوْلَى:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أَنْــــضَيْتِ عَيْــــشَكِ عِفَّــــةً وَزَهَــــادَةً
وَطُرِحْــــتِ مُثْقَلَــــةً مِــــنَ الأَعْبَــــاءِ
بِــــصِيَامِ يَــــوْمِ القَــــيْظِ تَلْهَــــبُ شَمْــــسُهُ
وَقِــــيَامِ طُــــوْلِ اللَيْلَــــةِ اللَــــيْلاءِ
مَــــا كَــــانَ يَوْمــــاً بالغَبْــــنِ مَــــنِ اشْــــتَرَى
رَغَــــدَ الجِــــنَانِ بِعِيْــــشَةٍ خَــــشْنَاءِ
لَــــوْ كَــــانَ مِثْلَــــكِ كُــــلُّ أُمٍّ بَــــرَّةٍ
غَنِــــيَ البَنُــــوْنَ بِــــهَا عَــــنِ الآبَــــاءِ [63]

وَأَمَّا الـمَـالُ فَمِنْ أَيْنَ لِـمِثْلِ (أُمِّ عبدِالله) مَالٌ؟

نَالَتْ مِنْهُ القَلِيْلَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَبَنَاتِهَا، فَوَالله مَا كَانَتْ تَدَّخِرُهُ حَذَراً مِـنْ رَوْعَـةِ الزَمَـانِ، وَلا كَانَـتْ تَجْمَعُـهُ؛ لِتُكَـاثِرَ بِـهِ العَـشِيْرَةَ وَلا الـجِـيْرَانَ؛ لأَنَّ اللهَ زَهَّدَهَا بِـالفَانِـيْ، وَرَغَّبَهَا فِي البَاقِـيْ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَـــا آمِـــرِيْ بـــاقْتِنَاءِ الـــمَالِ مُجْتَهِـــداً
كَيْـــمَا أَعِـــيْش بِمَالِـــيْ فِي غَـــدٍ رَغَـــدَا
هَبْنِـــيْ بـــجُهْدِيَ قَـــدْ أَصْـــلَحْتُ أَمْـــرَ غَـــدٍ
فَمَـــنْ ضَمِيْنِـــيْ بِتَحْـــصِيْلِ الـــحَيَاةِ غَـــدَا(64)

وَلِذَلِكَ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) مَا أَسْرَعَ أنْ تَتَـقَاسَمَ مَا يَأْتِـيْهَا مِنْهُ مَعَ الأَرَامِلِ وَالأَيْـتَامِ وَالـمَسَاكِيْنِ وَالفُقَرَاءِ،(وَكُـلُّ كَـرِيْمٍ مُوْلَعٌ بـالـمَكَارِمِ)، وَكَانَ لِسَانُ حَالِـهَا يَـقُـوْلُ:

يَجُـــوْدُ عَلَيْنَـــا الـــخَيِّرُوْنَ بِمَالِـــهِمْ
وَنَحْـــنُ بـــمَالِ الـــخَيِّرِيْنَ نَجُـــوْدُ(65)

وَبِـذَلِكَ كَانَتْ –وَالله– مِنْ أَنْعَمِ النَاسِ عَيْشاً؛ لأَنَّـهَا تَحَلَّتْ بالعَفَافِ، وَرَضِيَتْ بـالكَفَافِ، وَتَجَاوَزَتْ مَا يُخَافُ إلى مَا لا يُخَافُ، فَقَنِعَـتْ بِـمَا أَعْطَاهَـا رَبُّهَـا، فَـقَرَّتْ بِـذَلِكَ عَيْنُهَـا، وَرَضِـيَتْ باليَسِيْرِ،فَطَابَتْ مَعِيْشَتُهَا.

كَانَتْ والله سَرِيْعَةً بِـمَا تُعْطِـيْهِ، تُعْطِي مَسْرُوْرَةً بِـمَا تَبْذُلُـهُ، لا تَلْتَمِسُ بِـذَلِكَ عَرَضَ الدُنْيَا؛ فَيَحْبَطَ عَمَلُهَا، وَلا تَطْلُبُ الـمُكَافَأَةَ العَاجِلَةَ بِـالـحُسْنَى؛ فَيَسْقُطَ فِي الأُخْرَى أَجْرُهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

كَانَ قَلِيْلُ الـمَالِ يَأْتِيهَا عفواً صَفْواً، فَتُنْفِقُهُ مَخافَةَ يَوْمٍ عَسِيْرٍ عَلَى الـمُحْتَاجَاتِ وَالـمُحْتَاجِيْنَ قُرْباً وَقَصْواً:

إِذَا اعْتَزَّ بِالمَالِ الرِجَالُ فَإِنَّنَا
نَرَى عِزَّنَا فِي أَنْ نَجُوْدَ وَأَنْ نَسْخُوْ
فَعِزُّ الوَرَى بِالمَالِ يُنْسَخُ عَاجِلاً
وَعِزُّ الفَتَى بِالجُوْدِ لَيْسَ لَهُ نَسْخُ(66)

فَكَمْ مِنْ عَوْرَةٍ كَرِيْمةٍ سَتَرَتْهَا.

وَكَمْ مِنْ خَلَّةٍ مُحْتَاجَةٍ سَدَّتْهَا:

لِيَبْكِكَ كُلُّ مِسْكِيْنٍ فَقِيْرٍ
أَغَثْتِيْهِ وَقَدْ عَزَّ النَصِيْرُ(67)

كَانَتْ إذا أَعْطَتْ أَعْطَتْ مِنْ سَعَةٍ.

وَإذا آسَتْ آسَتْ مِنْ كَفَافٍ.

وَإذا آثَرَتْ آثَرَتْ مِنْ قِلَّةٍ.

وَإذا كَانَ الـجَاهِلُ يَحْسَبُ الـمُتَعَفِّفِيْنَ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَعفُّفِ، فَلَنْ يُلامَ مَنْ كَانَ يَرَى جُوْدَ (أُمِّ عبدِاللهِ) فِي الإِنْفَاقِ إذا لَمْ يَشُكَّ لَحْظَةً

فِي الاعْتِقَادِ بِـأَنَّـهَا ذَاتُ يَسَارٍ وَغِنًى، وَمَا يَـدْرِيْ هَـذَا الـمَخْدُوْعُ أنَّـهَا مُقِلَّةٌ مُوَاسِيَةٌ ؛ لا تُنْفِقُ مِنْ فَضْلِ مَالِهَا، بَلْ جُوْدُهَا الفِطْرِيُّ وَكَوْنُهَا جَعَلَتْ هَمَّهَا الآخِرَةَ، لا الدُنْيَا، هُمَا اللَّذَانِ صَيَّرَا غِنَاهَا فِيْ قَلْبِـهَا، وَجَعَلاهَا تَتَقَاسَمُ مَعَ الـمُحْتَاجِ رِزْقَهَا الـمَقْسُوْمَ مِنْ رَبِّـهَا، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

إنَّ الــجَوَادَ الـذِيْ يَـسْخُوْ مِــنَ العَـدَمِ[68]

وَصَدَقَ أَيْضاً الذِيْ قَالَ:

لَــيْسَ جُـوْدُ الــجَوَادِ مِــنْ فَـضْلِ مَــالٍ

إنــــَّمَا الـــجُوْدُ لِلْمُقِـــلِّ الـــمُوَاسِيْ[69]

فَهَلْ تَدْرُوْنَ مَنْ تَكُوْنُ (**أُمُّ عبدِالله**)؟

إِنَّـهَا أُمِّـيْ....

فَمَنْ ذا عِنْدَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

﴿ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) سَمْحَةً، سَهْلَةً، هَيِّنَةً، لَيِّنَةَ الجَانِبِ، مُتَوَاضِعَةً لا يَجِدُ الكِبْرُ إلى قَلْبِهَا سَبِيْلاً، وَلا تَعْرِفُ الخُيلاءُ إلى حَالِهَا دَلِيْلاً؛ لأَنَّهَا لا تَنْسَى مُبْتَدَاهَا، وَلا تَغْفُلُ عَنْ مُنْتَهَاهَا، وَلا تَبِيْعُ دِيْنَهَا بِدُنْيَاهَا، فَكَانَتْ نَقِيَّةً صَافِيَةً؛ وَإِنَّهُ لَـ:

- **(بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَكَبَّرَ وَزَهَا، وَنَسِيَ المُبْتَدَأَ والمُنْتَهَى.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ، وَنَسِيَ الكبيرَ المُتَعَال.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ بَاعَ الدِيْنَ بِالدُنْيَا.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ خَلَطَ الدِيْنَ بِالشُبُهَاتِ.**
- **بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَرُدُّهُ الرُعْبُ عَنِ الحَقِّ).**
- كَانَتْ (**أُمُّ عبدِالله**) طَيِّبَةَ النَفْسِ، ظَرِيفَةَ المَعْشَرِ، تَرْضَى بِالقَلِيْلِ، وَيَغْمُرُهَا الكَثِيْرُ.

لَهَا خَلائِقُ بِيْضٌ لا يُغَيِّرُهَا
صَرْفُ الزَمَانِ كَمَا لا يَصْدَأُ الذَهَبُ[70]

- كَانَتْ (**أُمُّ عبدِالله**) تَأْكُلُ مَا وَجَدَتْ، وَتَحْمَدُ رَبَّهَا عَلَيْهِ وَتَشْكُرُهُ، وَلا تَسْأَلُ عَمَّا فَقَدَتْ، وَلا تُتْبِعُهُ نَفْسَهَا، وَلا تَنْتَظِرُهُ.

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) مِنَ الذينَ إذا أُعْطُوْا شَكَرُوْا، وَإذا ذُكِّرُوْا ذَكَرُوْا، وَإذا أَحْسَنُوْا ازْدَادُوْا، وَإذا أَسَاؤُوْا اسْتَغْفَرُوْا، وَإذا ابتُلُوْا صَبَرُوْا، لَمْ أرَ مِثْلَهَا اصْطِبَاراً؛ فَقَدْ كُنْتُ أَرَى دَلائِلَ الأمْرَاضِ عَلَيْهَا بَادِيَةً لا تَخْفَى عَلى الأَعْيُنِ الرُمْدِ، فَإذا سَأَلْتُهَا: (عَسَى مَا شَرٌّ يا أمَّ عبدِ اللهِ؟) قَالَتْ: أَبَداً، وَالحَمْدُ للهِ؛ فَنِعَمُهُ عَلَيْنَا أَكْثَرُ مِنْ أنْ تُحْصَى:

فَفِي العُسْرِ لَمْ يَجْهَرْ بِشَكْوَى لِسَانُهَا
وَفِي اليُسْرِ لَمْ يَلْعَبْ بِأَعْطَافِهَا الكِبْرُ
وَشَرُّ الصِفَاتِ أنْ يُصِيْبَكَ حَادِثٌ
فَتَجْأَرَ بِالشَكْوَى وَفِيْ وُسْعِكَ الصَبْرُ[71]

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) شَاكِرَةً لِمَنْ أَعْطَى، غَافِلَةً عَمَّنْ مَنَعَ أَوْ أَعْطَى قَلِيْلاً وَأَكْدَى.

◉ كَانَتْ (أُمُّ عبدِالله) عَفَّةَ اللِسَانِ، طَاهِرَةَ الجَنَانِ، طَوِيْلَةَ البَاعِ بالإحْسَانِ، أَوْجَدَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُلُوْبِ نَسَباً؛ لأَنَّهَا جَعَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا سَبَباً، فَأَحَبَّهَا حُبّاً صَادِقاً كُلُّ مَنْ لَقِيَهَا، بَلْ كُلُّ مِنْ

سَمِعَ بِـهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَـهَـا مَنْ يَقْلِيْهَا؛ لأَنَّهَا لا تَحْمِلُ إلا الـخَيْرَ في قَلْبِـهَا.

◉ كَانَتْ (**أُمُّ عبدِالله**) لا تَحْسُدُ الأَخْيَارَ، وَلا تَعِـيْبُ الأَشْرَارَ؛ قَنَاعَتُهَا طَهَّرَتْ قَلْبَهَا مِنَ الـحَسَدِ، وَحِرْصُـهَا عَلَى مُدَارَاةِ النَاسِ عَفَّ بِلِسَانِهَا عَنِ الفَدَدِ، وَرِضَاهَا بِـقَضَاءِ الله مَنَعَهَا مِنْ أَنْ تَسْخَطَ عَلَى أَحَدٍ، وَجُوْدُهَا عَلَى البَعِيْدِ وَالقَرِيْبِ جَذَبَ إِلَيْهَا كُلَّ القُلُوْبِ، لا يُمْكِـنُ أَنْ تَـسْمَعَهَا يَوْماً تَذْكُرُ أَحَداً بِـسُوْءٍ، وَلا تَقُوْلُ: هَـذَا أَعْطَى، وَذَاكَ مَنَعَ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ تُسَلِّطَ عَلَى حَسَنَاتِهَا مَا يُذْهِبُهَا.

وَعَلَى الـرَغْمِ مِـنْ أَنَّ الـمَرْءَ مَعَ تَقَدُّمِ عُمُرِهِ يَتَغَيَّرُ مِزَاجُهُ، فَيَغْضَبُ لِمَا لا يُغْضِبُ، وَيَضِيْقُ ذَرْعاً بِالطِفْلِ الصَغِيْرِ، وَيُلْقِيْ بَالاً لِلْيَسِيْرِ وَلِلْكَثِيْرِ، لَكِنَّ (**أُمَّ عبدِالله**) كَانَتْ بِـخِلافِ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ كَانَتْ تَتَأَلَّفُ الـصَغِيْرَ وَالكَبِـيْرَ، وَتَفْرَحُ مِـنَ الـزُوَّارِ بِالـجَمِّ الغَفِيْرِ، صَدْرُهَا أَوْسَعُ مِنْ دَارِهَا، تَرَى القَادِمَ إِلَيْهَا صَاحِبَ فَضْلٍ عَلَيْهَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَهَلْ تعْرِفُوْنَ أَحداً خَرجَ مِنَ الدُنْيَا وَقَدِ اتَّفَقَ عَلَى حُبِّهِ الأَبْنَاءُ وَالبَنَاتُ، وَالأَحْفَادُ وَالأَسْبَاطُ، وَزَوْجَاتُ الأَبْنَاءِ وَأَزْوَاجُ البَنَاتِ، وَسَائِرُ الأَقَارِبِ وَالجِيْرَانِ وَالمَعَارِفِ؟

إِنَّهَا أُمِّيْ....

فَهَلْ كُلٌّ لَهُ أُمٌّ كَأُمِّيْ؟

۞ يَتفَاوَتُ النَاسُ في حِرْصِهِمْ عَلَى طَرْقِ أَبْوَابِ الخَيْرِ وَالتَفْتِيْشِ عَنْ سُبُلِهِ:

- فَمِنْ مُقِلٍّ وَمِنْ مُكْثِرٍ.
- وَمِنْ غَافِلٍ عَنْ جَوَامِعِ البِرِّ وَأُصُوْلِهِ، وَمِنْ مُتَيَقِّظٍ لِجَوَامِعِهِ وَدَقَائِقِهِ وَفُرُوْعِهِ.
- وَمِنْ مُمْسِكٍ بِمَفَاتِيْحِ الإِحْسَانِ، وَمِنْ مُضَيِّعٍ لَهَا.
- وَمِنْ مُبَادِرٍ لِاهْتِبَالِ فُرَصِ الأَعْمَالِ الصَالِحَةِ كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا، وَمِنْ مُسَوِّفٍ فِيْهَا.

● وَمِنْ مُشَمِّرٍ لِلْقِيَامِ بِيَسِيْرِ مَا يَجْلِبُ الثَوَابَ وَعَسِيْرِهِ، وَمِنْ مُفَرِّطٍ وَغَيْرِ مُبَالٍ بِيَسِيْرِهِ بَلْهَ عَسِيْرِهِ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الخَيْرِ وَجَوَامِعِ البِرِّ وَمَفَاتِيْحِ الإِحْسَانِ وَيَسِيْرِ مَا يَجْلِبُ جَزِيْلَ الثَوَابِ، إنَّ مِنْ أَعْظَمِهَا الشَفَاعَةَ الحَسَنَةَ في قَضَاءِ حَوَائِجِ النَاسِ وَدَفْعِ الكَرِيْهَةِ عَنْهُمْ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء:85].

وَقَالَ رَسُوْلُنَا ﷺ: **(أَفْضَلُ الصَدَقَةِ صَدَقَةُ اللِسَانِ، قَالُوْا: يَا رَسُوْلَ الله وَمَا صَدَقَةُ اللِسَانِ؟ قَالَ: الشَفَاعَةُ؛ يُفَكُّ بِهَا الأَسِيْرُ، وَيُحْقَنُ بِهَا الدَمُ، وَيُجْرَى بِهَا المَعْرُوْفُ وَالإِحْسَانُ إلى الأَخِ المُسْلِمِ)**، وَقَالَ ﷺ: **(اِشْفَعُوْا تُؤْجَرُوْا)**.

وَلا يَخْلُوْ زَمَانٌ وَلا مَكَانٌ مِنْ أَقْوَامٍ يَعْمُرُ المَوْلَى -جَلَّ جلالُهُ- قُلُوْبَهُمْ بِحُبِّ الشَفَاعَةِ وَالحِرْصِ عَلَى بَذْلِهَا وَالقِيَامِ بِهَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ إِنَّمَا خُلِقُوْا لِلشَفَاعَةِ، قَالَ ﷺ: **(إِنَّ لله عِبَاداً خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَاسِ، يَفْزَعُ النَاسُ إِلَيْهِمْ، أُوْلَئِكَ الآمِنُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ)**.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِي صَغِيْراً

وَأُمِّي -رَحِمَهَا اللهُ- أَحْسَبُ أنَّهَا كَانَتْ مِمَّنْ خلَقَهُمُ اللهُ لِحَوَائِجِ النَاسِ؛ فَقَدْ كَانَ النَاسُ الذِيْنَ يَعْرِفُوْنَهَا مِنَ الأَقَارِبِ والأَبَاعِدِ يفْزَعُوْنَ إِلَيْهَا؛ لِحَوَائِجِهِمْ، عَظِيْمِهَا وَجَلِيْلِهَا، وَهِيَ -رَحِمَهَا اللهُ- لا تَتَوَانَى فِي بَذْلِ جَاهِهَا، وَلا سِيَّمَا عِنْدَ مَنْ يَرَى أنَّ مِنَ البِرِّ بِهَا أنْ يَقُوْلَ لَهَا دَائِماً: (سَمْعاً وَطَاعَةً، وَأَبْشِرِيْ)، وَلَدَى مَنْ لَمْ يَأْلَفْ لِسَانُهُ أنْ يَقُوْلَ لَهَا بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ: (لا)، وَلِذَلِكَ كَانَتْ -رَحِمَهَا اللهُ- لا تَدَّخِرُ وُسْعاً فِي القِيَامِ بِالشَفَاعَةِ وَالحِرْصِ عَلَى نَجَاحِهَا، كَيْفَ لا وَقَدْ تَوَافَرَ لِشَفَاعَتِهَا شَرْطَا النَجَاحِ بِإِذْنِ اللهِ: (الوَجَاهَةُ وَالجُوْدُ):

وَأَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ النُجْحُ يَوْماً
إِذَا شَفَعَ الوَجِيْهُ إِلى الجَوَادِ[72]

فَالشَافِعُ جَوَادٌ وَوَجِيْهٌ، وَالمَشْفُوْعُ لَدَيْهِ وَجِيْهٌ وَجَوَادٌ أَيْضاً.

وَلَقَدْ كُنْتُ كَثِيْراً مَا أَلْحَظُ أَنَّهُ تَتَنَازَعُ فِي أَعْمَاقِ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- سَجِيَّتَانِ كَرِيْمَتَانِ: حُبُّ الشَفَاعَةِ، وَالحَيَاءُ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَطْلُبُهَا، فَكَمْ قَالَتْ لِيْ، وَمَاءُ الحَيَاءِ يَتَرَقْرَقُ مِنْ أَسَارِيْرِ وَجْهِهَا أَشَدَّ مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، كَمْ قَالَتْ -رَحِمَهَا اللهُ-: (فُلانَةٌ طَلَبَتْ مِنِّيْ أَنْ أُكَلِّمَكَ بِشَأْنِ كَذَا، وَلَكِنْ -واللهِ- إِنِّيْ مُسْتَحْيِيَةٌ مِنْكَ)، فَحِيْنَذَاكَ يَتَحَقَّقَ مُرَادُهَا، وَعِرْضُهَا مَصُوْنٌ، وَأَجْرُهَا مَوْفُوْرٌ.

وَقَدْ صَدَقَ ابْنِيْ (أَنَسٌ) الذِيْ لا زَالَ يَنْعَمُ بِثَمَرَةِ شَفَاعَةٍ مِنْ شَفَاعَاتِهَا الحَمِيْدَةِ، صَدَقَ وَأَصَابَ حِيْنَمَا قَالَ عَنْ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُتَحَسِّراً عَلَى وَفَاتِهَا:

(لَقَدْ مَاتَ الشَفِيْعُ الذِيْ لا يُرَدُّ):

بُنَيَّ رِفْقاً بِحَالِيْ إِنَّنِيْ دَنِفٌ
قَلْبِيْ شَجِيٌّ كَئِيْبٌ كَاسِفُ البَالِ
العَيْنُ تَبْكِيْ فِرَاقاً لا رُجُوْعَ لَهُ
وَالقَلْبُ مِنْ بَعْدِ أُمِّيْ لَيْسَ بِالسَالِيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأنْــــتَ تَنْكَــأُ جُرْحِــيْ حِــيْنَ تَــذْكُرُهَا

وَفَــقْدُ أَمْثَالِــهَا بُــؤْسٌ لأمْثَالِــيْ[73]

تِلْكَ هِـيَ أُمِّيْ.....

فَهَلْ تَلْقَوْنَ فِي الدُنْـيَا كَأُمِّيْ؟؟؟

ماذا فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّي؟

أَمْعَنْتُ فِي التَفَكُّرِ فِي الإِجَابَةِ عَلَى هذا السُؤَالِ:

مَاذا فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ؟؟؟

أَتَدْرُوْنَ لِمَاذَا؟

لأَنَّنِيْ قَدْ رَأَيْتُ فَقْدَهَا مُخْتَلِفاً عَنْ فَقْدِ أَيِّ مَفْقُوْدٍ، بَلْ إِنَّنِيْ وَجَدْتُنِيْ فَقَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ:

❁ كَانَ فِي الدَارِ دَوْحَةٌ خَضْرَاءُ وَارِفَةُ الظِلالِ، تَتَهَافَتُ عَلَيْهَا كُلَّ حِيْنٍ وَدُوْنَ اسْتِئْذَانٍ الطُيُوْرُ المُقِيْمَةُ وَالمُهَاجِرَةُ، وَيَقْتَسِمُ مَعَهَا أَهْلُ الدَارِ طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ وَالمَأوَى، فَيَأنَسُ كُلٌّ بِكُلٍّ، فَلا الدَارُ الحَاضِنَةُ تَسْتَغْنِيْ بِشَيْءٍ عَنْ غِنَاءِ طُيُوْرِهَا، وَلا الطُيُوْرُ الآوِيَةُ تَزْهَدُ بِدَوْحَتِهَا....

وَفَجْأَةً اجْتُثَّتِ الشَجَرَةُ مِنْ أَصْلِهَا؛ فَمَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، فَلا بُدَّ لِلْطُيُوْرِ عِنْدَ ذَاكَ مِنْ أَنْ تُهَاجِرَ مُرْغَمَةً بِلا اخْتِيَارٍ، وَأَنَّى لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ فِيْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَهَكَذَا هِيَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؛ كَانَتْ دَوْحَتَنَا الغَنَّاءَ، وَخَيمَتَنَا الوَارِفَةَ الظِلالِ؛ إذ كَانَ يَجْتَمِعُ حَوْلَـهَا أَوْلادُهَا وَأَحْفَادُهَا وَأَسْبَاطُهَا كُلَّ حِيْنٍ وَدُوْنَ حَاجَةٍ إلى مِـيْعَادٍ، وَبِـلا شُعُوْرٍ بِـأَدْنَـى حَـرَجٍ، وَلا تَـسْأَلُوْا عَـنْ مِقْدَارِ سُرُوْرِهَا إذا الْتَمَّ شَمْلُهُمْ؛ فَذَلِكَ يَوْمُ عِيْدِهَا الذِيْ لا تَسْتَطِيْعُ فِـيْهِ كِتْمَانَ سَعَادَتِهَا.

وَلَنْ يَعْسِرَ عَلَى أَحَدٍ اكْتِشَافُ غَمِّهَا إنْ غَابَ بَعْضُهُمْ؛ لأنَّ ذَلِكَ مَا لا يُطِيْقُ قَلْبُهَا الـمُرْهَفُ الـحَنُوْنُ إخْفَاءَهُ، وَلا لِسَانُهَا العَذْبُ تَجَاهُلَهُ، فَكَمْ سَتَسْمَعُهَا تَقُوْلُ: (إِيْهِ، وَاللهِ مَا يَنْقُصُنَا إلا فُلانٌ أَوْ فُلانَةٌ).

وَأَمَّا أَوْلادُهَا فَهُمُ الضِيَاءُ لِنَاظِرَيْهَا، وَهُمُ الأَكُفُّ لِسَاعِدَيْهَا، بَلْ هُمْ كَبِـدُهَا، وَثِمَارُ قَلْبِـهَا، وَعِمَادُ ظَهْرِهَا، وَهُمْ عِنْدَهَا مُتَسَاوُوْنَ، لا تَـعْرِفُ أَيـُّهُمْ هُوَ أَقْرَبُ إلى قَلْبِـهَا؛ إذ هُمْ لَدَيْهَا كَالـحَلَقَةِ الـمُفْرَغَةِ لا تَدْرِيْ أَيْنَ طَرَفَاهَا، أَحَبُّهُمْ إِلَيْهَا الغَائِبُ حَتَّى يَعُوْدَ، وَالـمَرِيْضُ حَتَّى يَبْرَأَ، وَالصَغِيْرُ حَتَّى يَكْبُرَ.

وَبِرَحِيْلِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- أَلا يُخْشَى عَلَيْنَا أنْ نَصِيْرَ كَطُيُوْرِ تِلْكَ الدَوْحَةِ تَفَرُّقاً وَشَتَاتاً؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بَعْــــدَ أُمِّـــــي سَـــيُنْكِرُ الـــــحُبُّ دَارَا

وَالعَـــــصَافِيْرُ تَهْجُــــرُ الأَوْكَــــارَا

وَدِيَـــــارٌ كَانَـــــتْ قَـــدِيْماً دِيَـــارَا

سَـــتَرَانا كَـــمَا نَرَاهَـــا قِفَـــارَا[74]

وَإِنِ الْتَقَيْنَا فَأَيْنَ تِلْكَ الرُوْحُ الصَافِيَةُ وَالنَفْسُ الطَيِّبَةُ التِيْ كَانَتْ تُضْفِيْ عَلَى اللِقَاءِ سَعَادَةً وَحُبُوْراً؟

أَرَاجِـــعَةٌ أَيَّـامُنَـــا مِثْـــلَ عَهْـــدِهَا

وَلَـــسْتُ عَلَـــيْهَا لَـــوْ أَرَدْتُ قَـــدِيْرَا[75]

وَبِرَحِيْلِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- أَلا نَخَافُ أَنْ تُلْبِسَنَا الدُنْيَا لِحَافَهَا الخَشِنَ، وَتُكَشِّرَ فِيْ وُجُوْهِنَا عَنْ وَجْهِهَا الكَئِيْبِ، فَيُفْضِيَ جَمْعُهَا إِلى شَتَاتٍ، وَصَفَاؤُهَا إِلى كَدَرٍ:

فَـــإِذَا الدُنْــــيْا كَـــمَا نَعْرِفُهَــــا

وَإِذَا الأَحْبَــــابُ كُـــلٌّ فِيْ طَرِيْـــقْ[76]

لَقَدْ فَقَدْنَا بِفَقْدِكِ يَا أُمَّاهُ مَا لا يُعَوَّضُ، فَتَبَدَّلَتْ مِنْ بَعْدِكِ حَالُنَا؛ فَلا بِنَاءَ بِلا أَسَاسٍ، وَلا ضِيَاءَ بِلا قَمَرٍ:

كُنَّـــا كَـــأَنْجُمِ لَيْـــلٍ بَيْنَهَـــا قَمَـــرٌ
يَجْلُـــو الـــدُّجَى فَهَـــوَى مِـــنْ بَيْـــنِهَا القَمَـــرُ[77]

وَصَـدَقَ الـشَيْـخُ الـمُجَرِّبُ الـذِيْ صَـلُبَ فِي الدُنْـيَا عُـوْدُهُ، وَأَعْرَقَتْ فِي الـحَيَاةِ تَجْرِبَتُـهُ، صَدَقَ حِيْنَ قَالَ فِي تَعْزِيَـتِهِ لِـيْ: (إِنَّ فَقْـدَ الكَبِـيْرِ هُـوَ الفَقْـدُ الـحَقِيْقِـيُّ؛ فَبِـفَقْدِهِ يَتَفَـرَّقُ الـشَمْلُ الـمُجْتَمِعُ، وَيَخْـبُو النُـوْرُ السَاطِعُ):

فَمَـــنْ سَـــيَلُمُّ الـــشَمْلَ فِيْ كُـــلِّ رُوْحِـــهِ
وَمَـــنْ سَـــيُرَى فِيْ حُلْـــوِ بَـــسْمَتِهِ الفَجْـــرُ؟
وَمَـــنْ سَـــيُنَاغِيْ كُـــلَّ طِفْـــلٍ بِـــلَهْوِهِ
وَمَـــنْ سَـــيُوَاسِيْ مَـــنْ بِـــهِ نَـــزَلَ الـــضُرُّ؟
وَمَـــنْ سَـــيُنَادِيْ كُـــلَّ فَجْـــرٍ لِطَاعَـــةٍ
وَيَأْمُرُنَـــا بِـــالوَصْلِ يَـــا طِيْـــبَهُ الأَمْـــرُ!
وَمَـــنْ سَيُنَاجِـــيْ رَبَّـــهُ كُـــلَّ لَيْلَـــةٍ
وَيَـــدْعُوْ لَنَـــا كَـــيْ لا يَحِـــيْقَ بِـــنَا شَرُّ؟[78]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

لَقَدْ فقَدْنا كُلَّ هَذَا وَأَكْثَرَ مِنْهُ بِفَقْدِكِ يَا أُمَّاهُ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّي يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِي وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

۞ لَقَدْ فَقَدْتُ بِفَقْدِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- الحُبَّ الصَادِقَ الذِيْ لا نِفَاقَ فِيْهِ وَلا رِيَاءَ، وَفَقَدْتُ النَقَاءَ الخَالِصَ الذِيْ لا يَشُوبُهُ غِشٌّ وَلا كَدَرٌ، وَهُوَ مَا يَنْدُرُ وُجُوْدُهُ غَالِبَاً فِي زَمَنٍ نَعِيْشُهُ الآنَ، زَمَنٍ لَبِسَ فِيْهِ أَكْثَرُ النَاسِ الثِيَابَ عَلَى قُلُوْبِ الذِئَابِ، وَشَرُّ الذِئَابِ عَلَيْهَا الثِيَابُ[79]، وَمَنْ يَأْمَنِ الذِئْبَ لا تَسْلَمْ عَوَاقِبُهُ:

وَالذِئْبُ أَخْبَثُ مَا يَكُوْنُ إذا بَدَا

مُتَلَبِّساً بَيْنَ النِعَاجِ إِهَابَا[80]

أَجَـلْ، إنَّ ظَـاهِرَ تَعَامُـلِ كَثِـيْرٍ مِـنَ النَـاسِ أَرَقُّ مِـنَ الـحَرِيْرِ وَالـدِيْبَاجِ، وَأَلْسِنَتَهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ الـمُصَفَّى، لَكِـنَّ قُلُوْبَهُمْ أَخْشَنُ فِي اليَدِ مِنْ شَوْكِ العِضَاهِ، وَأَمَرُّ فِي الـحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ:

إذا أَنْـــتَ فَتَّـــشْتَ القُلُـــوْبَ وَجَـــدْتَهَا

قُلُـــوْبَ الأَعَـــادِيْ فِيْ جُـــسُوْمِ الأَصَـــادِقِ[81]

إنّهُ لَـزَمَنٌ لا يَـأْمَنُ فِـيْهِ الـحَصِيْفُ غَـدْرَ الـصَدِيْقِ، وَلا تَقَلُّـبَ الرَفِـيْقِ؛ لأَنَّ القُلُوْبَ الـيَوْمَ تُقَلِّبُهَا الـمَصَالِحُ وَالأَهْوَاءُ إلا مَا رَحِـمَ رَبِّيْ، وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ؛ فَهُمْ أَنْدَرُ مِنَ الكِبْرِيْـتِ الأَحْمَرِ وَمِـنَ الزَبَرْجَـدِ الأَخْضَرِ.

وَلَكِنَّ قَلْبَ الأُمِّ وَحُبَّهَا وَعَطْفَـهَا وَحَنَانَهَا فَقَـطْ هِـيَ الَتِـيْ لا تَتَغَيَّرُ أَبَـداً:

فَـــإِنَّ الــــحَنَانَ الــــحَقَّ فِي الأُمِّ وَحْـــدَهَا

وَغَـــيْرُ حَنَـــانِ الأُمِّ ضَرْبٌ مِـــنَ الــــوَهْمِ

هِـــيَ الأُمُّ سِـــرٌّ لَـــسْتَ تَعْـــرِفُ كُنْهَـــهُ

وَإِنْ خِلْتَهَـــا فِـــيْ صُـــوْرَةِ الـــدَمِ واللَحْـــمِ[82]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

نَعَمْ قَدْ يَصِيْرُ الإِخْوَةُ أَعْدَاءً، وَقَدْ يَهْجُرُ الأَزْوَاجُ زَوْجَاتِهِمْ، وَالزَوْجَاتُ أَزْوَاجَهُنَّ، وَلَكِنَّ حُبَّ الأُمِّ هُوَ البَاقِيْ؛ فَهُوَ يَعِيْشُ فِيْ إِقْبَالِ الحَظِّ وَإِدْبَارِهِ، وَفِيْ تَنَكُّرِ العَالَمِ وَتَجَهُّمِ وَجْهِ الدَهْرِ، وَإِنْ سَأَلْتُمُوْنِيْ عَنْ حَقِيْقَةِ ذَلِكَ فَقَدْ سَأَلْتُمْ عَنْ ذَلِكَ خَبِيْراً:

خَمْسُوْنَ عَاماً وَأَنْتِ الحُبُّ أَجْمَلُهُ
وَأَنْتِ لِيْ بَهْجَةُ الدُنْيَا وَمَا فِيْهَا

خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُدَلِّلُهُ
مَشَاعِرُ الوُدِّ فِيْ أَحْلَى مَعَانِيْهَا

خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُؤَانِسُهُ
خَمَائِلُ الحُبِّ أَلْهُوْ فِيْ مَغَانِيْهَا

خَمْسُوْنَ عَاماً أَنَا طِفْلٌ تُهَدْهِدُهُ
عُيُوْنُ طِفْلِكِ فِيْ أَبْهَى مَرَائِيْهَا

خَمْسُوْنَ عَاماً وَكُلُّ الدِفْءِ أَشْعُرُهُ
حَيْثُ الأُمُوْمَةُ لا شَيْءٌ يُوَازِيْهَا(83)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إيْـهِ يا أُمِّيْ لَقَدْ فَقَدْتُ بِـفَقْدِكِ كَثِيْراً؛ فَالْـمَالُ يُعَوَّضُ بِـمَالٍ، وَلَكِنَّ الـحُـبَّ الـصَادِقَ وَالـصَفَاءَ الأَصْلِيَّ وَالنَقَاءَ الفِطْرِيَّ كُلَّهَا مَاتَتْ إلا مِنْ قُلُوْبِ الأُمَّهَاتِ، وَمِنْ أَيْنَ لِيْ أُمٌّ حَانِيَةٌ مُحِبَّةٌ مُشْفِقَةٌ، وَقَدِ اخْتَرَمَتْ يَدُ الـمَنُوْنِ رُوْحَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَغَابَ عَنِّي كِيَانُهَا؟:

وَأَيُّ حَيَـــــاةٍ بَعْـــــدَ أُمٍّ فَقَـــــدْتُهَا

كَـمَا يَفْقِـدُ الـمَرْءُ الـزُلالَ عَـلَى الظَـمَا[84]

لَقَدْ مَاتَتْ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، وَاخْتَفَى مِنْ حَيَاتِيْ حُبُّهَا وَعَطْفُهَا وَحَنَانُهَا، فَأَمْحَلَتْ بَعْدَهَا أَرْضِيْ فِيْ كُلِّ بَقِيْعٍ، وَصَوَّحَتْ رِيَاضِيْ بَعْدَ رَبِـيْعٍ:

أَنْــتِ فَـيْءٌ ظَلِـيْلٌ قَـدْ زَالَ عَنَّـا

وَاخْتَفَـى بَيْـنَ سِتْـرِهَا وَالحِجَـابِ

أَنْــتِ رَوْضٌ زَاهِـي الأَرِيْـجِ وَزَاهٍ

طَـيِّبُ الأَصْـلِ طَـاهِرُ الأَنْـسَابِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِينَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

مَــــا بَقَائِــــيْ مِــــنْ بَعْــــدِ فَقْــــدِكِ إلا

مِثْــــلُ عَــــيْشِ الرِيَــــاضِ دُوْنَ سَــــحَابِ[85]

وَأَفَلَتِ تِلْكَ الشَمْسُ الـمُنِـيْرَةُ فِـي الـمَغِيْبِ وَفِـيْ مَعِيَّـتِهَا ذَهَـبَ الأُنْـسُ وَالـهَنَاءُ وَحَلاوَةُ العَيْشِ وَالصَفَاءُ:

اليَــــوْمَ فَــــارَقَنِي الهَنَــــاءُ وَأَقْفَــــرَتْ

أَرْضِيْ وَصِرْتُ يَهُوْلُنِــــي القَفْــــرُ

قَــــدْ ضَــــاعَ أُنْــــسِيْ كُلُّــــهُ بِـمَمَاتِــــهَا

فَــــالعَيْشُ بَعْــــدَ فِرَاقِهَــــا مُــــرُّ[86]

لَقَدْ أَمْسَتْ أُمِّي -رَحِمَهَا اللهُ- بَعِيْدَةَ الدَارِ، وَحَسْبُكَ بِـهِ مِنْ بُعْدٍ سُكْنَى القُبُـوْرِ، حَتَّـى غَـدَتْ جَـوَانِحِيْ وَكُـلُّ مَـشَاعِرِيْ تُنَادِيْهَـا بِـاشْتِيَاقٍ وَحَنِـيْنٍ، وَبُكَـاءٍ وَأَنِـيْنٍ، وَلَكِـنْ - وآسَفَـاهُ - لا تَلْقَـى مُجِـيْباً:

يَــا بَعِــيْدَ الــدَارِ عَــنْ عَيْنِــيْ وَمِــنْ قَلْبِــيْ قَرِيْبَــا

كَــمْ أُنَــادِيْكَ بِــأَشْوَاقِيْ وَلا أَلْقَــى مُجِــيْبَا[87]

وَلَكِنْ إذا كَانَ (**يَكْفِيْكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ**) فَإِنَّ فَقْدَ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- يَكْفِيْ أنَّهُ أَفْقَدَنِيْ لَذَّةَ أَيِّ فَرَحٍ بَعْدَهَا، وَحَسْبُكَ بِهَذِهِ مِنْ مُصِيْبَةٍ:

آهاً لِفَقْدِكِ إنَّهُ الفَقْدُ الذِيْ
نُسِخَتْ بِيَوْمِ عَزائِهِ الأَفْرَاحُ[88]

فَإِنَّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

ﷻ أَتَدْرُوْنَ مَنْ يَمْلِكُ حَاسَّةً سَادِسَةً يَصْدُقُ حَدْسُهَا وَلا يَخِيْبُ؟

إِنَّهُ قَلْبُ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ....

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

كَمْ أَدْرَكَتْ مِنْ سَمَاعِ صَوْتِيْ عَبْرَ الهَاتِفِ فَقَطْ أنَّنِيْ أُعَانِيْ مِنْ مُشْكِلَةٍ، أَمَّا إذا رَأَتْنِيْ، وَقَرَأَتْ قَسَمَاتِ وَجْهِيْ، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ تُخْطِئَ فِرَاسَتُهَا كَبِدَ الحَقِيْقَةِ، وَلأنَّهَا - رَحِمَهَا اللهُ- كَانَتْ تَحْزَنُ لِحُزْنِنَا، وَتَطِيْرُ فَرحاً بِفَرَحِنَا، كُنْتُ أُحَاوِلُ إخْفَاءَ مَا قَدْ يُكَدِّرُ عَلَيْهَا صَفْوَ حيَاتِهَا، وَلَكِنَّهَا - رَحِمَهَا اللهُ- كَانَتْ بِفِرَاسَتِهَا وَإحْسَاسِهَا الذِيْ لا يَخِيْبُ تَقْرَأُ مَا وَرَاءَ السُطُوْرِ، وَتَكْتَشِفُ بِحَدْسِهَا مَا خَلْفَ النَبْرَاتِ.

لَقَدْ كُنْتُ إذا أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُحَاوِلُ أنْ أُنَفِّسَ عَنِّيْ مَا أَهَمَّنِيْ بِسَمَاعِ صَوْتِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- مُتَحَاشِياً أنْ أُفْصِحَ لَهَا عَمَّا أَهَمَّنِيْ؛ لِيَزُوْلَ عَنِّيْ مَا أَحْزَنَنِيْ، وَلَكِنَّهَا بِحَاسَّتِهَا السَادِسَةِ - جَزَاهَا اللهُ خَيْراً- كَانَتْ تُدْرِكُ أنَّ أَمْراً (مَا) يُقْلِقُنِيْ، وَلَوْ لَمْ أُطْلِعْهَا عَلَيْهِ، فَيُفَرِّجُ اللهُ عَنِّيْ غَمِّيْ؛ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ صَوْتِهَا وَحَدِيْثِهَا مَعِيْ، وَلَكِنَّ الغَمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ قَلْبِيْ إلى قَلْبِهَا المُرْهَفِ الوَدُوْدِ؛ لأَنَّهَا أَدْرَكَتْ أنَّنِيْ مَهْمُوْمٌ مِنْ شَيْءٍ وَإنْ كَانَتْ لا تَعْرِفُهُ:

مَـــنْ لِيْ إذا مَـــا جِـــئْتُ أَبْغِـــيْ رَاحَـــةً

وَلَطَافَـــــةً إِنْ ضُــــيِّقَ الــــصَدْرُ؟

مَـــنْ ذا يُوَاسِـــيْنِيْ إذا مَـــا نَوَّخَـــتْ

فِي سَـــــاحَتِي الآلامُ وَالعُـــــسْرُ؟

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ عَـــوْنِيْ دَائِـــماً

وَبِـــكِ العَـــزَاءُ إذا اعْتَـــدَى الـــشَرُّ

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ مَـــصْدَرَ فَرْحَتِـــيْ

أَبَـــداً يُرَفْـــرِفُ حَوْلَـــكِ البِـــشْرُ

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ نَجْـــماً هَادِيـــاً

وَلأَنْـــتِ فِي ظَلْمَائِـــيَ البَـــدْرُ

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ ظِـــلاً وَارِفـــاً

آوِيْ إِلَيْـــهِ إذا قَـــسَا الـــحَرُّ

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّـــاهُ كِـــنّاً دَافِـــئاً

فِـــيْكِ الأَمَـــانُ إذا بَـــدَا القُـــرُّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

قَـــدْ كُنْـــتِ يَـــا أُمَّــــاهُ نَبْعـــاً صَافِـــياً

يَـــشْفِي الغَلِـــيْلَ وَإِنَّـــكِ النَهْـــرُ

آوِيْ إلى بُـــسْتَانِ عَطْفِــكِ رَائِقـــاً

مِـــنْ حَوْلِـــيَ الأَطْيَـــارُ وَالزَهْـــرُ(89)

وَلَكِنْ بَعْدَ رَحِيْلِكِ يَا أُمَّاهُ كَيْفَ صَارَتْ حَالِيْ؟

اليَـــوْمَ أَصْـــبَحَ شَـــأْنِيْ كُلُّـــهُ حَزَنـــاً

إذ تَـــسْتَوِيْ الآنَ أَفْرَاحِـــيْ وَأَحْـــزَانِيْ(90)

فَإذا فَرِحْتُ حَزِنْتُ؛ لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ مَنْ يَفْرَحُ لِفَرَحِيْ أَكْثَرَ مِنِّيْ.

وَإذا حَزِنْتُ ازْدَدْتُ أَسًى وَحُزْناً؛ لأَنَّهُ قَدْ مَـاتَ مَنْ يُسَلِّيْنِيْ.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا حَصَلَ لِـيْ فِيْ أَثْـنَاءِ الـمُكْثِ الأَخِيْرِ لأُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- فِي الـمُسْتَشْفَى أَنَّنِـيْ بَعْـدَ الـخُرُوْجِ مِـنْ زِيَارَتِهَـا مَغْمُوْماً حَزِيْناً؛ لِـمَا حَلَّ بِـهَا، كَانَ يَحْدُثُ لِيْ كَثِيْراً أَنْ أَهُمَّ بِـإِخْرَاجِ

الهَاتِفِ؛ لأَتَّصِلَ بِوَالِدَتِيْ في بَيْتِهَا بـ(الرَسِّ)؛ عَلَّهُ يَزُوْلُ هَمِّيْ وَغَمِّيْ، كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ حِيْنَمَا كَانَ يَحْزُنُنِيْ أَمْرٌ، فَأُفِيْقُ عَلَى الحَقِيْقَةِ المُرَّةِ، أَلا وَهِيَ أَنَّنِيْ بِهَذَا أَكُوْنُ كَمَنْ يَسْعَى إلى أَنْ يُدَاوِيَ نَفْسَهُ بِالتِيْ كَانَتْ هِيَ الدَاءَ؛ لأَنَّ أُمِّيْ لا يُمْكِنُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهَا؛ فَهِيَ التِيْ تَرَكْتُهَا قَبْلَ لَحَظَاتٍ مُسَجَّاةً عَلَى السَرِيْرِ بِلا حِرَاكٍ وَلا كَلامٍ، وَهِيَ التِيْ مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَتَصَامَّ عَنْ نِدَائِيْ، وَقَدْ كُنْتُ أُنَادِيهَا، وَأَقُوْلُ لَهَا: (أَنَا صَالِحٌ)، بَلْ أَذْكُرُ الكُنْيَةَ التِيْ كَانَتْ تُحِبُّهَا، وَلا تُنَادِيْنِيْ إلا بِهَا، فَأَقُوْلُ لَهَا: **(أَنَا أَبُوْ أُسَامَةَ)**، فَيَبْكِيْ إِشْفَاقاً عَلَيَّ، وَرَحْمَةً بِيْ، وَرَأْفَةً بِحَالِيْ، يَبْكِيْ كُلُّ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ المَرْضَى وَزُوَّارِهِمْ، وَلا سِيَّمَا الأُمَّهَاتُ، أَمَّا أُمِّيْ فَهِيَ وَحْدَهَا التِيْ لا تُجِيْبُ، وَلا أَدْرِيْ أَهِيَ تَسْمَعُنِيْ أَمْ لا؟؟؟، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا باللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ:

وَكُنْتُ إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرِيْ بِحَادِثٍ

فَزِعْتُ بِنَجْوَاهُ إِلَى صَدْرِهَا الرَحْبِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَـــيَذْهَبُ عَنِّـــيْ هَـــمُّ نَفْـــسِيْ كَأَنَّـــهَا

شـــفَتْ غـــلَّةَ الظَمْـــآنِ بِـــالبَارِدِ العَــذْبِ (٩١)

لَقَدْ فَقَدْتُ بِفَقْدِكِ يَا أُمِّيْ مَا لا يُعَوِّضُهُ أَحَدٌ في الدُنْيَا سِوَاكِ، فَإنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

ﻉ أَقْصَرُ الطُرُقِ إلى تَحْقِيْقِ المَنْشُوْدِ هُوَ دُعَاءُ الوَالِدَيْنِ؛ يَقُوْلُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: (**ثَلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَّ فِيْهِنَّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ، وَدَعْوَةُ المَظْلُوْمِ، وَدَعْوَةُ المَرْءِ لأَخِيْهِ**)، وَإنَّ دَعْوَةَ الأُمِّ لا يُمْكِنُ أنْ تَضِلَّ الطَرِيْقَ.

وَأُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً- كَانَتْ دَائِمَةَ الرِضَا عَنْ أَوْلادِهَا، شَدِيْدَةَ الحُبِّ لَهُمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْتُرُ عَنِ الدَعَوَاتِ

الصَالِحَاتِ لَهُمْ فِي قِيَامِهَا وَقُعُوْدِهَا، وَبِقَلْبِهَا السَلِيْمِ الذِيْ لا يَعْرِفُ غِلاً وَلا أَحْقَاداً، وَقَدْ كُنْتُ أَرَى فِيْ شُؤُوْنِيْ كُلِّهَا أَثَرَ دُعَائِهَا عِيَاناً لا مِرْيَةَ فِيْهِ وَلا ارْتِيَابَ فِيْ حِلِّيْ وفِيْ تَرْحَالِيْ:

مَا زَالَ صَوْتُكِ يَا أُمَّاهُ يَتْبَعُنِيْ
يَا رَبِّ رُدَّ حَبِيْباً أَدْمَنَ السَفَرا

يَا رَبِّ صُنْهُ مِنَ الأَشْرَارِ كُلِّهِمُ
وَرُدَّ عَنْهُ الأَذَى وَالكَيْدَ وَالخَطَرا

وَاجْبُرْ إِلَهِيَ كَسْراً حَلَّ فِيْ خَلَدِيْ
فَأَنْتَ تَجْبُرُ يَا مَوْلايَ مَا انْكَسَرا[92]

وَلِذَلِكَ كَمْ مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ تفَتَّحَتْ لِيْ مِنْ دُوْنِ احْتِسَابٍ، وَكَمْ مَكِيْدَةٍ مِنْ مَكَايْدِ الحَاسِدِيْنَ دُحِرَتْ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى ثُمَّ بِقَبُوْلِهِ دُعَاءَ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

وَإِنِّيْ لأَعْتَرِفُ اليَوْمَ وَكُلَّ يَوْمٍ بِأَنَّنِيْ مَدِيْنٌ بِكُلِّ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ، وَمَا قَدْ أَصِلُ إِلَيْهِ فِي المُسْتَقْبَلِ بإِذنِ اللهِ، مَدِيْنٌ للهِ تَعَالَى ثُمَّ لأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَلَكِنْ هَا هُوَ ذا البَابُ الرَحْبُ الـمُشْرَعُ لِكُلِّ خيْرٍ قَدْ أُوْصِدَ؛ بِوَفَاةِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ....

فَمَا أَفْدَحَ الـمُصَابَ ! وَمَا أَعْظَمَ الـخَسَارَةَ !!!:

إلى مَنْ أَشْتَكِيْ ولِمَنْ أُنَاجِيْ

إذا ضَاقَتْ بِمَا فِيْهَا الصُدُوْرُ؟

بِأيِّ دُعَاءِ دَاعِيَةٍ أُوَقَّى؟

بِأيِّ ضِيَاءِ وَجْهٍ أَسْتَنِيْرُ؟

بِمَنْ يُسْتَدْفَعُ القَدَرُ الـمُوَفَّى؟

بِمَنْ يُسْتَفْتَحُ الأَمْرُ العَسِيْرُ؟

نُسَلَّى عَنْكِ أنَّا عَنْ قَلِيْلٍ

إلى مَا صِرْتِ في الأُخْرَى نَصِيْرُ(92)

فَإنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

﴿ في الدُنْـيَا مَلَـذَّاتٌ أَعْظَـمُ مِـنَ الطَعَــامِ والـشَرَابِ وَسَـائِرِ الـمَلَذَّاتِ الـمَعْهُوْدَةِ، وَمِـنْ أَلَذِّ الـمَلَذَّاتِ التِـيْ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِـيْرٌ مِنَ النَاسِ إدْخَالُ الـسُرُوْرِ عَلَى قُلُوْبِ الآخَرِيْنَ، يَقُوْلُ الرَسُوْلُ ﷺ: **(أَحَبُّ النَاسِ إلى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ سُرُوْرٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِيْ عَنْهُ دَيْناً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوْعاً)**، فَكَيْفَ إذا كَانَ القَلْبُ الذِي تَغْمُرُهُ بالـسُرُوْرِ هُوَ قَلْبَ أُمِّكَ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ بِـبِـرِّهَا الوَاجِبِ الذِيْ لا مَــزِيْدَ فَضْلٍ في القِيَامِ بِـهِ، أَمْ بِـمَا زَادَ عَلَيْهِ، إنَّ لِذَلِكَ لَذَّةً لَوْ وُزِنَتْ بِـهَا مَلَذَّاتُ الـحَيَاةِ الدُنْيَا كُلُّهَا لَرَجَحَتْ بِـهِنَّ.

وَلَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- تُحِبُّ بَذْلَ الـخَيْرِ وَمُسَاعَدَةَ الـمُحْتَاجِـيْنَ وَالـمُحْتَاجَاتِ، وَلِكَثْرَةِ مَنْ تَعْرِفُ مِنْهُمْ كَانَ مِنَ البِــرِّ بِــهَا جَعْلُهَا طَرِيْقاً لإِيْتَاءِ بَعْضِ الزَكَاةِ وَبَذْلِ شَيْءٍ مِنَ الـصَدَقَاتِ، فَلا تَسْأَلُوْا عَنْ مِقْدَارِ سُرُوْرِهَا كَيْفَ كَانَ يَبْلُغُ حِـيْنَذَاكَ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَمَهْمَا حَلَّقَ بِكُمْ شِرَاعُ الخَيَالِ، أَوْ أَبْحَرَ بِكُمْ سَفِيْنُهُ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ تُحِيطُوا بِمَا يَكُوْنُ لِذَلِكَ فِيْ نَفْسِهَا -رَحِمَهَا اللهُ- مِنْ سَعَادَةٍ وَفَرَحٍ وَحُبُوْرٍ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ غَيْرَ قَلِيْلٍ مِنَ الأَوْلادِ لا يُدْرِكُ أَنَّ الآبَاءَ وَالأُمَّهَاتِ يَوَدُّوْنَ أَنْ يَصِيْرُوا أَيَادِيَ عُلْيَا تُعْطِيْ، مِثْلَمَا جُبِلَتِ النُّفُوْسُ عَلَى سَجِيَّةِ قَبُوْلِ الهِبَاتِ وَالعَطَايَا، وَإِنِّيْ لأَرَى أَنَّ مِنَ البِرَّ بِالوَالِدَيْنِ إِشْبَاعَ هَذِهِ الغَرِيْزَةِ لَدَيْهِمَا بِمُسَاعَدَتِهِمَا عَلَى إِعَانَةِ الفُقَرَاءِ وَالمُعْوِزِيْنَ.

وَأَعُوْدُ لأَقُوْلَ: لا شَكَّ فِيْ أَنَّهُ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- لا يَخْفَى عَلَى مِثْلِيَ أَنَّ بِرَّ الوَالِدَيْنِ لا يَنْقَطِعُ بِوَفَاتِهِمَا؛ لأَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ حِيْنَ سَأَلَهُ أَحَدُ الصَحَابَةِ -رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ- فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ:

هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمَا؟

قَالَ: **(نَعَمْ، الصَلاةُ عَلَيْهِمَا -أَيْ الدُعَاءُ لَهُمَا- وَالإِسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عُهُوْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيْقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَحِمِ الذِيْ لا رَحِمَ لَكَ إِلا مِنْ قِبَلِهِمَا)**.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إذا سَـــجَدْتُ رَفَعْـــتُ القَلْـــبَ مُبْـــتَهِلاً
إِنِّيْ عَـــلَى ثِقَـــةٍ بِـــالوَاحِدِ الأَحَـــدِ

أَدْعُــوْ لِـــمَنْ عَلَّمَتْنِـــي الـــصِدْقَ مُبْحِــرَةً
بِـمُهْجَتِـــيْ فِيْ عُبَــابِ الـــحَقِّ وَالرَشَـــدِ

أَدْعُــوْ لِـــمَنْ عَلَّمَتْنِـــي الـــحُبَّ مَــا وَهَنَــتْ
حَتَّـــى سَرَى نَبْـــضُهُ فِيْ قَلْـــبِ مُعْتَقَـــدِيْ

أَدْعُــوْ لِـــمَنْ عَطَّـــرَتْ شِـــعْرِيْ بِبَـــسْمَتِهَا
وَمِـــنْ سَـــنَا رُوْحِهَـــا يَعْتَادُنِـــيْ مَـــدَدِيْ

أَدْعُـــوْ لِـــمَنْ كُلَّـــمَا دَوَّنْـــتُ قَافِـــيَةً
وَجَـــدْتُ قُبْلَـــتَهَا البَيْـــضَاءَ فَـــوْقَ يَـــدِيْ

وَكَـــانَ آخِـــرُ مَـــا قَالَتْـــهُ نَظْرَتُهَـــا
كُـــنْ رَاضِـــياً بِقَـــضَاءِ اللهِ يَـــا وَلَـــدِيْ[٩٤]

لَكِنِ الآنَ بَعْدَ رَحِيْلِ أُمِّـيْ: كَيْفَ السَبِيْلُ إِلى التَلَذُّذِ بِإِدْخَالِ السُرُوْرِ إلى قَلْبِـهَا، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ دُعَائِهَا الـمُسْتَجَابِ؟

لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ هَذَا؛ بِـرَحِيـلِكِ يَا أُمِّيَ الغَالِـيَةَ الأَثِـيْرَةَ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

يَـــا رُوْحَ أَحْلامِـــيْ وَنَبْـــعَ خَــوَاطِرِيْ
وَمُنَـــايَ فِيْ فَرَحِـــيْ وَفِيْ أَشْجَانِــــيْ
لَـــهَفِيْ عَلَيْـــكِ قَرِيْبَـــةً وَبَعِيْـــدَةً
لَهَفِـــيْ عَلَيْـــكِ وَأَنْـــتِ فِي الأَكْفَـــانِ(95)

فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِكِ وَبِأَبِيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

مِمَّا لا رَيْبَ فِيْهِ أَنَّ الإِنْفَاقَ بِلا إِسْرَافٍ وَلا تَبْذِيْرٍ لا يَنْقُصُ مِنَ المَالِ شَيْئاً؛ لِقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: 39]. وَلا شَكَّ فِيْ أَنَّ التَصَدُّقَ مِنَ المَالِ قَدْ أَقْسَمَ رَسُوْلُنَا ﷺ أَنَّهُ لا يَنْقُصُهُ، بَلْ يَزِيْدُهُ، وَأَمَّا الإِنْفَاقُ عَلَى الوَالِدَيْنِ -إذا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ الله وَالدَارُ الآخِرَةُ- فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، بَلْ هُوَ أَوْسَعُ أَبْوَابِ الرِزْقِ، وَأَرْغَدُهُ، وَأَسْرَعُهُ، وَأَطْيَبُهُ.

◉ أَلا مَنْ أَرَادَ بَرَكَةَ الرِزْقِ فَلْيُسْرِعْ، لَيْسَ إلى الإِنْفَاقِ عَلَى أَبَوَيْهِ فَحَسْبُ، بَلْ إلى الإِغْدَاقِ عَلَيْهِمَا بِنَفْسٍ رَضِيَّةٍ.

◉ أَلا مَنْ أَرَادَ رَغَدَ العَيْشِ فَلا يَبْخَلْ عَلَى وَالِدَيْهِ.

◉ أَلا مَنْ أرادَ سُرْعَةَ الإِيْسَارِ فَلْيُوْسِرْ عَلَى أُمِّهِ وَأَبِيْهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ ثَمَرَةَ هَذَا بِأُمِّ عَيْنِيْ، فَوَجَدْتُ أَنَّ مَا يُنْفِقُهُ الوَلَدُ عَلَى أُمِّهِ أَوْ أَبِيْهِ يُخْلِفُهُ اللهُ عَلَيْهِ مُضَاعَفاً أَضْعَافاً كَثِيْرَةً، وَعَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ مَوْلاهُ -جَلَّ جَلالُهُ- مِنْ ثَوَابِ الآخِرَةِ، وَوَاللهِ، ثُمَّ وَاللهِ، وَتَاللهِ مَا قَلَّ مَا أَخْلَفَهُ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا أَنْفَقْتُهُ عَلَى أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- فِيْ أَيِّ مَرَّةٍ مِنَ المَرَّاتِ، مَا قَلَّ عَنْ عَشَرَةِ أَضْعَافِهِ، حَتَّى أَيْقَنْتُ أنَّ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- قَدْ جَعَلَهَا رَبِّيْ أَوْسَعَ أَبْوَابِ رِزْقِهِ لِيْ.

◉ فَهَنِيْئاً لِمَنْ تَكْتَحِلُ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَةِ وَالِدَيْهِ صَبَاحَ مَسَاءَ.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنِ احْتَاجَ لَهُ أَبَوَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا.

◉ وَهَنِيْئاً لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِبِرِّهِمَا.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَإِنَّ اللهَ وَحْدَهُ لَيَعْلَمُ كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَدَّ فِي عُمُرِ أَبِي رَحِمَهُ اللهُ؛ لأَتَمَكَّنَ مِنْ بِرِّهِ حَيّاً، وَلَكِنَّ اللهَ شَاءَ أَنْ أَفْقِدَهُ - يَرْحَمُهُ اللهُ- وَأَنَا ابْنُ الثَانِيَةَ عَشْرَةَ(96).

وَهَا هِيَ ذِيْ أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- تَلْحَقُ بِهِ بَعْدَ حِيْنٍ؛ لأَبْقَى بَعْدَهُمَا فِي هَذِهِ الدُنْيَا أَجْنَبِيّاً غَرِيْباً:

أُسْرَةُ الـمَرْءِ وَالِـدَاهُ وَفِيْمَا
بَيْنَ حِضْنَيْهِمَا الـحَيَاةُ تَطِيْبُ
فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الـمَرْءِ يَوْماً
فَهْوَ فِي النَاسِ أَجْنَبِيٌّ غَرِيْبُ(97)

لَكِنَّ مِنَ العَجَبِ العُجَابِ أَنَّنِيْ قَدْ وَجَدْتُ بَيْنَ فَقْدِيْ لأَبِيْ - رَحِمَهُ اللهُ- وَفَقْدِيْ لأُمِّي رَحِمَهَا اللهُ، وَجَدْتُ بَيْنَهُمَا فَرْقاً بَيِّناً فِي آثَارِهِمَا عَلَى نَفْسِيْ، وَهُوَ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ القَائِلِ:

فَقَدْتُ أَبِيْ طِفْلاً فَلَمْ أَدْرِ مَا الأَسَى
وَأُفْقِدْتُهَا كَهْلاً فَأَوْهَى الأَسَى عَظْمِيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

سَلُوْنِـــيْ أُحَدِثُـــكُمْ عَـــنِ الـــيُتْمِ بَعْـــدَهَا
فَـــإِنَّ اليَتِـــيْمَ الكَهْـــلَ أَعْـــرَفُ بِـالـيُـــتْمِ(98)

فَمَا أَعْظَمَ مُصَابِيْ بِـفَقْدِكِ يَا أُمِّيْ!!!

سَـــلُوْنِيْ عَـــنِ الأَحْـــزَانِ بَعْـــدَ رَحِـــيْلِهَا
فَـــلا حُـــزْنَ فِي الـــدُّنْيَا كَحُـــزْنِيْ عَـــلَى أُمِّـــيْ
مَـــضَتْ حَيْـــثُ لا رَجْـــوَى بِـــيَوْمِ رُجُوْعِهَـــا
وَحَـــسْبُكَ أَنْ تَحْيَـــا مَـــعَ اليَـــأْسِ وَالغَـــمِّ(99)

فَإِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِـعُوْنَ. وَرَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّيْ يَا (**أُمَّ عَبْدِالله**)، وَجَمَعَنَا اللهُ بِـكِ وَبِأَبِـيْ وَوَالِدِيْكُمْ مَعَ النَبِيِّيْنَ وَالـصِدِّيْقِيْنَ وَالشُهَدَاءِ وَالصَالِحِيْنَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الـجَنَّةِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

دَمْعَةٌ عَلَى قَبْرِ أُمِّي

بَعْدَ صَلاةِ الظُهْرِ مِنْ يَوْمِ الخَمِيْسِ 24/ 5/ 1424هـ أَسْرَعَ المُشَيِّعُونَ بِجنَازَة أُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- إلى حَيْثُ اللَحْدُ الضَيِّقُ، وَمَا هِيَ إلا دَقَائِقُ مَعْدُوْدَةٌ اِجْتَهَدَ فِيْهَا البَاحِثُوْنَ عَنِ الثَوَابِ تَحْتَ شَمْسِ الظَهِيْرَةِ الحَارِقَةِ، وَلَهِيْبُهَا يَحْدُوْهُمْ إلى الاِسْتِعَاذَةِ بِالرَحْمَنِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، مَا هِيَ إلا دَقَائِقُ مَعْدُوْدَةٌ حَتَّى صَدَرَ الأَمْرُ الصَارِمُ: (أَهِيْلُوْا عَلَيْهَا التُرَابَ بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ).

فَانْهَالَ التُرَابُ عَلَى أَحَبِّ الأَحْبَابِ، وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى قَبْرِهَا وَاجِماً، لا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا تَرَى عَيْنَايَ؛ فَفِي الأَمْسِ كُنَّا نَمْسَحُ عَنْ جَبِيْنِكِ يَا أُمِّيْ ذَرَّاتِ الغُبَارِ، وَهَا نَحْنُ أُوْلاءِ الآنَ نَجْتَهِدُ فِيْ رَمْسِكِ بِالتُرَابِ!.

وَحَثَوْتُ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ اقْتِدَاءً بِسُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ، ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَأْسِ أُمِّيَ الذِيْ طَالَمَا طَبَعْتُ عَلَيْهِ سَيْلَ القُبُلاتِ، وَقَفْتُ غَيْرَ آبِهٍ بِحَرَارَةِ الشَمْسِ التِيْ تَحْرِقُ الجُلُوْدَ؛ لأَنَّ حَرَارَةَ جَوَانِحِيْ تُنْسِيْ مَا سِوَاهَا، وَ(عِلَّةُ الحَالِ تُنْسِيْ عِلَّةَ الجَسَدِ)[100].

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَانْثالَتْ أَشْجَانِيْ شَلالاتٍ مُتَدَفِّقَةً نَابِـعَةً مِنْ أَعْماقٍ دَفِيْنَةٍ:

◉ إِيْهِ يَا أُمِّيْ يَا حُشَاشَةَ نَفْسِـيْ؛ إِنَّ هَـذِهِ -واللهِ- هِـيَ الـسَاعَةُ التِيْ مَا تـمَنَّيْتُ أنْ أُدْرِكَها....

◉ إِيْهِ يَا أُمِّيْ يَا حَبِـيْبَةَ فُؤَادِيْ؛ إِنَّ هَذَا -واللهِ- هُوَ الـمَوْقِفُ الذِيْ لَـمْ أَحْسِبْ لَـهُ حِسَاباً....

◉ إِيْهِ يَا أُمِّيْ يَا غِذَاءَ رُوْحِيْ؛ إِنـَّهُمْ لا يَـدْفِنُوْنَ جَسَدَكِ، بَـلْ يَدْفِنُوْنَ سَعَادَتِيْ وَهَنَائِيْ....

◉ إِيْهِ يَا أُمِّيْ يَا ضِيَاءَ عَيْنِيْ؛ أَحَقّاً أَنَّ هَذَا هُوَ آخِرُ عَهْدِيْ بِـكِ فِيْ هَذِهِ الدُنْيَا....

وَسَـقَطَتْ مِنِّـيْ دَمْعَـةُ أَسًـى وَحَـزَنٍ، دَمْعَـةٌ تَـدَحْرَجَتْ كَـاللُؤْلُؤِ الرَطْبِ عَلَى الـخَدِّ الأَسِـيْلِ، (وَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَبْكِـيْ إِلاَّ مَـرَّةً، وَلَكِـنَّ دُمُوْعَهُ عِنْدَئِذٍ تَكُوْنُ مِنْ دَمٍ)، لَقَدْ كَانَـتْ عَـبْرَةً مِـنْ عَيْنِـيْ، وَالعَـبْرَةُ لا يَــمْلِكُهَا أَحَـدٌ، وَمَـعَ ذَلِـكَ اجْتَهَـدْتُ فِيْ أَنْ أُخْفِـيَهَا عَـنِ الـشَامِتِيْنَ وَالـحَاسِدِيْنَ، وَهَلْ فِي الـمَوْتِ يَا عِبَادَ اللهِ شَمَاتَةٌ أَوْ حَـسَدٌ؟ وَ:(حَتَّـى

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

عَلَى الـمَوْتِ لا أَخْلُوْ مِـنَ الـحَـسَـدِ)[101]، وَإنـَّهَا لَـدَمْعَـةٌ وَاحِـدَةٌ فَقَـطْ، وَعَلَى مِثْلِ أُمِّيْ - رَحِمَهَا اللهُ- تَسِيْلُ الدُمُوْعُ غِزاراً.

لَـوْلا الـحَيَاءُ لَهَاجَنِـي اِسْـتَعْبَارُ
وَطَفَـا بـعَيْنِـي دَمْعُهَـا الـمِدْرَارُ[102]

وَانْتَبَهْتُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الوَقْتِ فَإذا القَوْمُ قَدْ أَنْهَوْا مَرَاسِمَ الـدَفْنِ وَالتَعْزِيَةِ، وَأَنَا مَا زِلْتُ أَسْبَحُ فِيْ بَحْرِ شُجُوْنِيْ، فَاسْتَعَذتُ بـالله مِـنَ الشَيْطَانِ الرَجِيْمِ، وَأَفَقْتُ عَلَى الـحَقِيْقَةِ التِيْ مَا مِنْهَا مَفَرٌّ، وَلا عَنْهَا مَنَاصٌ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا القَبْرَ -وَاللهِ- هُـوَ الـمَنْـزِلُ الـحَقُّ، وَالوَعْـدُ الصِدْقُ، وَالوَعِـيْدُ الشَدِيْدُ، وَالـمَسْكَنُ الذِيْ لَيْسَ لأَهْلِ الدُنْـيَا عَنْهُ مَحِيْدٌ، وَإنـَّهُ لَنِعْمَ الـمَسْكَنُ لِمَنْ أَحْسَنَ، وَلَكِنْ مَـنْ يَتَـذَكَّرُ فِيْ زَمَـنِ التَذَكُّرِ؟.

وَأَمَّـا أنـا فَقَـدْ تَـذَكَّرْتُ سَـاعَتَهَا أنَّ هَـذَا -وَاللهِ- هُـوَ الـمَوْتُ الـمُفَرِّقُ بَيْنَ الأَحْبَابِ، وَهُوَ الـمُقَرِّبُ مِنَ الـحِسَابِ، وَالـذِيْ بـِهِ يَعْرِفُ الفَرِيْقَانِ مَنازِلَـهُمْ:

أَهْلُ السَعَادَةِ فِيْ نَعِيْمٍ دَائِمٍ، وَأَهْلُ الشَقَاءِ فِيْ عَذَابٍ أَلِـيْمٍ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هَذَا الـمَصِيْرَ إِنَّما هُوَ أَمْرُ اللهِ الـذِيْ لا مَدْفَعَ لَـهُ، وَحُكْمُهُ الذِيْ لا حَيْفَ فِيْهِ، وَقَدَرُهُ الذِيْ سَوَّى فِيْهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَلَيْسَ للسَاخِطِ فِيْهِ عُتْبَى، وَلا لِلرَاضِيْ مِنْهُ مَنْجَى، وَلَيْسَ لَنَا أَمَامَهُ إلا الإِنْقِيَادُ فِيْهِ لِنَازِلِ القَضَاءِ.

ثُمَّ حَمِدْتُ رَبِّيَ الذِيْ لا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوْهٍ سِوَاهُ، حَمِدْتُهُ مِرَاراً عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ؛ فَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ -بِحَمْدِ اللهِ- نُطِيْعُهُ فِيْمَا يُحِبُّ، وَنَحْمَدُهُ فِيْمَا نكْرَهُ. وَهَمْهَمْتُ فِيْ صَدْرِيْ مُتَمْتِماً: هَا أَنْتِ ذِيْ يَا أُمَّاهُ أَمْسَيْتِ بَعْدَ النَضَارَةِ وَالغَضَارَةِ وَرَوْنَقِ الحَيَاةِ أَمْسَيْتِ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَرَى جَسَداً هَامِداً:

نَفْسِيْ وَنَفْسُكِ وَالنُفُوْسُ مُعَارَةٌ
يَدْعُوْ بِهَا إِمَّا يَشَاءُ مُعِيْرُهَا
فَلَئِنْ ذَهَبْتِ لَقَدْ ذَهَبْتِ وَمُقْلَتِيْ
صَبَّابَةٌ يَجْرِيْ عَلَيْكِ غَزِيْرُهَا
فَعَلَيْكِ مِنْ مِنَحِ الإِلَهِ صَلاتُهُ
وَسَقَى عِظَامَكِ فِي الضَرِيْحِ عَبُوْرُهَا(103)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُمَّــاهُ لَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ ضَمَّهَا بَدَنُكِ.

وَلَنِعْمَ البَدَنُ بَـدَنٌ يَـضُمُّـهُ كَفَـنُكِ.

وَلَنِعْمَ الكَفَنُ كَفَنٌ يَـضُمُّـهُ لَـحْـدُكِ.

وَمَا أَعْظَمَ مُصَابِـيْ بِكِ يَا أُمِّـيْ!!!

لَكِنْ يَا أُمَّاهُ إِنَّ رَبِّيْ أَمَرَنِيْ بِـالصَبْرِ، وَوَعَدَنِيْ عَلَيْهِ عَظِيْمَ الأَجْرِ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَهُ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَهُ، وَلَـنْ أَقُوْلَ، وَلَـنْ أَعْمَلَ إِلا مَا يُرْضِيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، (**وَلَيْسَ لأَيَّامِ الرَزِيَّةِ كَالصَبْرِ**)[104] :

سَأَصْبِـرُ حَتَّـى يَعْجِـزَ الـصَبْرُ عَـنْ صَـبْرِيْ
وَأَصْبِـــرُ حَتَّـــى يَحْكُـــمَ اللهُ فِيْ أَمْـــرِيْ

وَأَصْبِـــرُ حَتَّـــى يَعْلَـــمَ الـــصَبْرُ أَنَّنِـــيْ
صَـبَرْتُ عَـلَى شَـيْءٍ أَمَـرَّ مِـنَ الـصَبْرِ[105]

وَسَوْفَ أُوَطِّنُ نَفْسِيْ عَلَى مُجَالَدَةِ الحَزَنِ وَمُدافَعَتِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلا خَـــيْرَ فِـــيْمَنْ لا يُـــوَطِّنُ نَفْـــسَهُ
عَـلَى نَائِبَـاتِ الـدَهْرِ حِـيْنَ تَنُـوْبُ[106]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَحُزْنِيْ عَلَيْكِ يَا أُمَّاهُ سَيُهَوِّنُ كُلَّ حُزْنٍ بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمُصِيْبَتِيْ بِكِ يَا أُمَّاهُ سَتُرَقِّقُ بَعْدَكِ كُلَّ مُصِيْبَةٍ بِعَوْنِ اللهِ.

فَبَعْدَكِ لا آسَى عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ

مَضَيْتِ فَهَوَّنْتِ المَصَائِبَ أَجْمَعَا(107)

فَأَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيْمِ مُصَابِيَ الجَلَلَ بِكِ يَا أُمِّيَ الحَبِيْبَةَ الغَالِيَةَ.

◉ وَأَسْأَلُ الذِي اِسْتَوْدَعَنِيْ فِيْ أَحْشَائِكِ جَنِيْناً أَنْ يَرْحَمَكِ بَعْدَ أَنِ اسْتَوْدَعْناكِ الرَدْمَ، وَأَنْ يَجْعَلَكِ مِمَّنْ تُرَحِّبُ بِهِمُ الأَرْضُ، وَتَسْتَبْشِرُ بِهِمُ السَمَاءُ.

◉ وَأَسْأَلُ الذِيْ كَمْ جَعَلَ يَدَكِ وِسَاداً لِيْ أَنْ يَجْعَلَ أَرَائِكَ الجَنَّةِ وِسَادَكِ بَعْدَ أَنْ وَسَّدْنَاكِ الثَرَى.

◉ وَأَسْأَلُ الذِيْ سَقَانِيْ مِنْ ثَدْيَيْكِ رَضِيْعاً أَنْ يَسْقِيَكِ مِنْ حَوْضِ نبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ شَرْبَةً لا تَظْمَئِيْنَ بَعْدَهَا أَبَداً.

◉ وَأَسْأَلُ الذِيْ أَمْتَعَنِيْ فِيْ حَيَاتِيْ مَعَكِ أَنْ يُمَتِّعَكِ مَتَاعاً سَرْمَدِيّاً بِالفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنْ جَنَّتِهِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

◉ وَأَسْأَلُ الذِيْ أَطْمَعُ بِرِضْوانِهِ أنْ يَتغَمَّدَكِ بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَأنْ يَمْهَدَ لَكِ فِيْ أَعْلَى جِنَانِهِ، وَأَنْ يَفْسَحَ لَكِ فِيْ مَثْوَاكِ، وَأَنْ يَجْعَلَ آخِرَتَكِ خَيْراً مِنْ أُوْلاكِ، وَأنْ يُكْرِمَ مَرْجِعَكِ، وَأَنْ يُبَرِّدَ مَضْجَعَكِ، وَأنْ يَرْحَمَكِ رَحْمَةَ الأَبْرَارِ، وَأنْ يَحُطَّ عَنْكِ ثِقْلَ الأَوْزَارِ، وَأنْ يَكُوْنَ قَدِ اخْتَارَ لَكِ النُقْلَةَ مِنْ دَارِ البَوَارِ إِلى مَنْزِلَةِ الـمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ فِيْ دَارِ القَرَارِ.

أُمَّــاهُ: إِنِّيْ لا أَقُوْلُ الآنَ إلا مَا يَنْفَعُكِ حَقّاً، فَأَبْتَهِلُ إِلى اللهِ مَوْلايَ وَمَوْلاكِ، الحَيِّ القَيُّوْمِ، الذِيْ لا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ -جَلَّ جَلالُهُ وَعَزَّ سُلْطَانُهُ- الذِيْ قَالَ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، وَأَدْعُوْهُ لَكِ بِصَدْرٍ نَقِيٍّ، وَقَلْبٍ تَقِيٍّ، أَدْعُوْهُ ضَارِعاً إِلَيْهِ وَمُوْقِناً بِاسْتِجَابتِهِ، وَأَقُوْلُ:

◉ اللّهُمَّ يَا خَيْرَ مَنْ نَزَلَ بِهِ الـمُؤَمِّلُوْنَ، وَاسْتَغْنَى بِفَضْلِهِ الـمُقِلُّونَ، وَوَلَجَ فِيْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ الـمُذْنِبُوْنَ، يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ: إِنَّ لِكُلِّ ضَيْفٍ قِرًى، وَأُمِّيْ ضَيْفُكَ اليَوْمَ، وَهِيَ كَرِيْمَةٌ قَدِمَتْ عَلَيْكَ

وَأَنْتَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِيْنَ، فَاجْعَلْ قِرَاهَا عَفْوَكَ وَرَحْمَتَكَ وَرِضْوَانَكَ وَجَنَّتَكَ يَا أَرْحَمَ الرَاحِمِيْنَ.

◉ اللَّهُمَّ أَعِنْهَا عَلَى القَبْرِ وَضَمَّتِهِ، وَعَلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَرَوْعَتِهِ، وَعَلَى الحَشْرِ وَهَيْبَتِهِ، وَعَلَى المِيْزَانِ وَخِفَّتِهِ، وَعَلَى الصِرَاطِ وَزَلَّتِهِ، إِنَّكَ البَرُّ الرَحِيْمُ.

◉ اللَّهُمَّ إِنَّ ذُنُوْبَ أُمِّيْ لا تَضُرُّكَ، وَإِنَّ رَحْمَتَكَ إِيَّاهَا لا تَنْقُصُكَ، فَاغْفِرْ لَهَا اللَّهُمَّ يَا غَفُوْرُ مَا لا يَضُرُّكَ، وَأَعْطِهَا يَا جَوَادُ مَا لا يَنْقُصُكَ، إِنَّكَ أَنْتَ الجَوَادُ الكَرِيْمُ.

◉ اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَمْسَيْتُ أَرْجُوْكَ لَهَا، وَأَخَافُكَ عَلَيْهَا، اللَّهُمَّ فَصَدِّقْ رَجَائِيْ بِكَ لَهَا، وَأَمِّنْ خَوْفِيْ وَإِشْفَاقِيْ مِنْكَ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ.

◉ اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهَا، وَآنِسْ وَحْشَتَهَا، وَاسْتُرْ عَوْرَتَهَا يَوْمَ تُكْشَفُ الهَنَاتُ وَالسَوْءَاتُ.

◉ اللَّهُمَّ آمِنْ رَوْعَاتِهَا يَوْمَ تَخْشَعُ الأَصْوَاتُ، وَتَخْتَلِفُ اللُغَاتُ، وَيُحْشَرُ الأَحْيَاءُ وَالأَمْوَاتُ، وَتَكْثُرُ الحَسَرَاتُ عَلَى فَوَاتِ الحَسَنَاتِ،

وَتَعْنُو الوُجُوْهُ لِلوَاحِدِ القَهَّارِ، خَالِقِ اللَيْلِ وَالنهَارِ، وَعَالِمِ الـخَفَايَا وَالأَسْرَارِ.

إِلَهِيْ: مَا أَضْيَقَ الطَرِيْقَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ دَلِيْلَهُ !

إِلَهِيْ: مَا أَوْحَشَ الدَرْبَ عَلَى مَنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ أَنِيْسَهُ !

◉ الْلَهُمَّ فَكُنْ لَهَا وَلَنَا في الطَرِيْقِ دَلِيْلاً، وَكُنْ لَهَا وَلَنَا في الدَرْبِ أَنِيْساً، وَاجْبُرْ مُصَابَنَا بِهَا يَا جَابِرَ كُلِّ كَسِيْرٍ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتَلَقَّى أَمْرَكَ بِالقَبُوْلِ، وَأَقْدَارَكَ بِالتَسْلِيْمِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ.

(وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْداً قَالَ آمِيْنَا)(108).

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَأَقْفَرَتْ
إذْ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ

◉ أُمَّــاهُ: هَا أنَــا ذا يَــا أُمَّاهُ أَنْصَرِفُ غَيْرَ مُخْتَارٍ مِنْ أَمَامِ قَبْرِكِ، فَأُوَلِّيْكِ ظَهْرِيْ، وَإنَّهُ لَيَعُزُّ عَلَيَّ أنْ أَدَعَكَ بَيْنَ جِيْرَانٍ لا يَتَزَاوَرُوْنَ، وَأَصْحَابٍ لا يَتَسَامَرُوْنَ، قَوْمٍ يَسْتَوِيْ عِنْدَهُمُ اللَيْلُ وَالنَهارُ، وَالصَيْفُ وَالشِتَاءُ، وَالرَبِيْعُ وَالخَرِيْفُ:

بِــأَرْضِ خَــلاءٍ لا حَبِــيْبٌ مُوَاصِــلٌ
وَلا زَائِــرٌ مِــنْهُمْ زِيَــارَةَ مُعْتَــادِ[109]

وَإنَّهُ لَيَحْزُنُنِيْ أنْ أَتْرُكَكِ تَسْفِيْ عَلَى قَبْرِكِ الرِيَاحُ حَبَّاتِ الرَمْلِ، وَإنَّ قَلْبِيْ لَيَبْكِيْ عَلَيْكِ وَعَلَى مَا انْصَدَعَ مِنَ الشَمْلِ:

رَجَعْــنَا وَافْــرَدْنَاكِ غَــيْرَ فَرِيْــدَةٍ
مِــنَ البِــرِّ وَالــمَعْرُوْفِ وَالــخَيْرِ وَالكَــرَمْ[110]

◉ أُمَّــاهُ: هَا أَنَا ذا يَا أُمَّاهُ أَنْقَلِبُ إلى بَقِيَّةِ أَهْلِيْ، وَلَكِنْ بِلا سُرُوْرٍ؛ فَلَقَدْ مَاتَ السُرُوْرُ بِمَوْتِكِ يَا (أُمَّ عَبْدِالله):

وَمَهْـما تكُـنْ مِـنْ ضِـحْكةٍ بَعْـدَ فَقْـدِهَا
فَــإنِّيْ وَإنْ أَظْهَرْتــهَا لَحَــزِيْنُ
سَــلامٌ عَــلَى أَيَّامِنَــا قَبْــلَ مَوْتِهَــا
إذِ الــدَارُ دَارٌ وَالــسُرُوْرُ فُنُــوْنُ(111)

◉ أُمَّــاهُ: لَئِنْ عَزَّتْنِيْ يَا أُمَّاهُ حَيَاتُكِ لَقَدْ هَدَّتْنِيْ يَا أُمَّـاهُ وَفَاتُكِ:

مَــا هَــدَّنِيْ مَــرُّ الــسِنِيْنَ وَإنَّــمَا
أَمْــسَيْتُ بَعْــدَكِ بِــالأَسَى مَهْــدُوْدَا(112)

وَأَقْبَلْتُ عَلَى الدَارِ التيْ طَالَـمَا أَنِسَتْ بِـأُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ، أَقْبَلْتُ عَلَيْهَا، وَقَدْ فَارَقَهَا أُنْسُهَا؛ بِـرَحِيْلِ مُؤْنِسِهَا؛ وَمَا مِنْ دَارٍ مُلِئَتْ فَـرَحاً إلا امْتَلأَتْ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ تَـرَحاً، وَوَقَفْتُ أَمَامَ البَـابِ حَائِرَةً قَدَمِيْ بَيْنَ إقْبَالٍ وَإدْبَارٍ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِنِّيْ وَقَفْتُ بِبَابِ الدَّارِ أَسْأَلُهَا

عَنِ الحَبِيْبِ الذِيْ قَدْ كَانَ لِيْ فِيْهَا

فَمَا وَجَدْتُ بِهَا طَيْفاً يُكَلِّمُنِيْ

سِوَى نُوَاحِ حَمَامٍ فِيْ أَعَالِيْهَا

يَا دَارُ أَيْنَ أَحِبَّائِيْ لَقَدْ رَحَلُوْا

وَيَا تُرَى أَيَّ أَرْضٍ قَدْ غَدَوا فِيْهَا

لا يَعْرِفُ الشَوْقَ إلا مَنْ يُكَابِدُهُ

وَلا الصَبَابَةَ إلا مَنْ يُعَانِيْهَا

لا يَسْهَرُ اللَيْلَ إلا مَنْ بِهِ أَلَمٌ

لا تُحْرِقُ النَارُ إلا رِجْلَ وَاطِيْهَا[113]

وَدَخَلْتُ الدَارَ التِيْ أَمْسَتْ مِنْ أُمِّيْ خَالِيَةً بَعْدَ أَنْ ظَلَّتْ زَمَناً جَمِيْلاً بِهَا حَالِيَةً، دَخَلْتُهَا وَإِنِّيْ لأَكَادُ أَسْمَعُ نَشِيْجَ بُكَائِهَا وَأَنِيْنَهَا عَلَى فَقِيْدَتِهَا الغَالِيَةِ رَحِمَهَا اللهُ:

وَلَقَدْ قَصَدْتُ الدَارَ بَعْدَ رَحِيْلِهَا

وَوَقَفْتُ فِيْهَا وِقْفَةَ الحَيْرَانِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَسَأَلْتُهَا لَكِنْ بِغَيْرِ تكَلُّمِ

فَتَكَلَّمَتْ لَكِنْ بِغَيْرِ لِسَانِ

نَادَيْتُهَا يَا دَارُ أَيْنَ أُمَيْمَتِيْ

أَيْنَ التِيْ مَلأَتْكِ بِالتَحْنَانِ؟

قَالَتْ وَقَدْ فَاضَتْ مَآقِيْهَا وَفِيْ

جنبَاتِهَا رَجْعُ صَدَى الأَحْزَانِ

رَحَلَتْ بِلا رَجْعٍ فَيَا أَسَفَا عَلَى

أُمِّ المَكَارِمِ رَبَّةِ الإِحْسَانِ(114)

وَحَاوَلْتُ أنْ أَكُوْنَ مُتَجَلِّداً عِنْدَمَا أَدْخُلُ الدَارَ، وَأُقَابِلُ أَحْبَاباً يُشَارِكُوْنَنِيْ فِيْ فَقْدِ الحَبِيْبَةِ رَحِمَهَا اللهُ؛ كَيْ أَكُوْنَ قُدْوَةً تَشُدُّ العَزَائِمَ، مَعَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدَارِ يَبْكِيْ، ويُبْكِي البَوَاكِيَ ؛ فَكُلُّ بُقْعَةٍ وَكُلُّ صَغِيْرٍ وَكُلُّ كَبِيْرٍ يُذَكِّرُ وَلا يُنْسِيْ، وَيُشْجِيْ وَلا يُسْلِيْ، وَبِلا شُعُوْرٍ...

تَلَفَّتُ عَلَيَّ أنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً

وَأَصْغَيْتُ عَلِّيْ أنْ أَفُوْزَ بِكِلْمَةِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَقُلْـــتُ هُنَـــا عَاشَـــتْ وَهَـــذَا مَكَانُهَـــا

وَكِـــدْتُ أُنادِيْهَـــا لأَطْـــرُدَ وَحْـــشَتِيْ

وَقَلَّبْـــتُ طَـــرْفِيْ فِيْ يَمِـــيْنٍ وَشَـــمْأَلٍ

فَلَـــمْ أَلْـــقَ إلا مَـــا يُهَـــيِّجُ حَـــسْرَتِيْ[115]

◉ هَهُنَا مُصَلاهَا، وَحِيْنَ مَرَرْتُ بِـــهِ تَوَهَّمْتُ أَنَّنِـــيْ أَسْمَعُ أَنِيْنَهُ؛ أَلَـمْ يَقُلْ أَمِيْرُ المؤمنينَ عَلِيُّ بنُ أبي طَالِـبٍ - ﷺ -: **(إذا مَاتَ العَبْدُ الصَالِحُ بَكَى عَلَيْهِ مُصَلاهُ مِنَ الأَرْضِ، وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَمَاءِ)**؟.

◉ وَهَهُنَـــا مَكَـــانُ جُلُوْسِـــهَا مَـــا زَالَ نَـــشْوَانَ بِـطِـــيْبِ حَـــدِيْثِهَا....

◉ وَهَهُنَا مُجْتَمَعُهَا مَعَ زُوَّارِهَا عَلَى الطَعَامِ يَشْهَدُ بِـكَرَمِهَا....

◉ وَهَهُنَا كَانَ مَكَانُ نَوْمِهَا وَمَعَهَا أَنِيْسَاهَا: (رَيَّانُ) وَالـمِذْيَاعُ الذِيْ لا يُسْمِعُ إلا إذاعَةَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ....

أَمْـــسَيْتُ فِـــي المَاضِـــيْ أَعِـــيْشُ كَـــأَنَّمَا

قَـطَعَ الزَمَـانُ طَرِيْـقَ أَمْـسِيْ عَـنْ غَـدِيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَالطَــــيْرُ صَــــادِحَةٌ عَـــلَى أَفــــنَانِهَا
تبْكِـــي الرُبَـــى بأَنِيْنِـــهَا الـمُتـــجَدِّدِ
قـــدْ طَـــالَ تَـــسْهِيْدِيْ وَطَـــالَ نَـــشِيْدُهَا
وَمَـــدَامِعِيْ كَالطَـــلِّ فِي الغُـــصْنِ النـــدِي
فـــإلَى مَتـــى صَمْتِـــيْ كَـــأَنِّيْ زَهْـــرَةٌ
خَرْسَـــاءُ لَـــمْ تـــرْزَقْ بَرَاعَـــةَ مُنْـــشِدِ[116]

وَبَدَتِ الدَارُ مُوْحِشَةً مُقْفِرَةً عَلَى الرَغْمِ مِنْ تَقَاطُرِ أَفْوَاجِ المُعَزِّيْنَ عَلَيْهَا؛ فَلَقَدْ فَقَدَتِ الدَارُ أَعَزَّ مَنْ كَانَ فِيْهَا، (**وَبِأَهْلِهَا تَغْلُو الدِيَارُ وَتَرْخُصُ**)[117]، أَجَلْ، لَقَدْ أَظْلَمَتْ إذ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ، (**بَلْ أَقْفَرَتْ إذ خَلَتْ مِنْ أُمِّيَ الدَارُ**)[118].

وَنَادَى لِصَلاةِ العَصْرِ مُنَادِي الحَقِّ وَالفَلاحِ: (**حَيَّ عَلَى الصَلاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلاحِ**)، فَأَجَبْتُ المُنَادِيَ طَلَباً لِلْفَلاحِ وَلِلرَاحَةِ التِيْ لا أَحَدَ كَانَ أَحْوَجَ مِنِّيْ إِلَيْهَا بَعْدَ أنِ اكْتَأَبَ القَلْبُ، وَضَاقَ الصَدْرُ،

وَاحْتَبَسَتِ الدُمُوْعُ؛ أَلَمْ يَقُلْ رَسُوْلُنَا ﷺ: **(يَا بِلالُ أَرِحْنَا بِالصَلاةِ)**؟...

وَبَعْدَ الصَلاةِ أَقْبَلْتُ مِنَ المَسْجِدِ تُجَاهَ الدَارِ الحَزِيْنَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَسْتُ أَدْرِيْ: لِمَاذَا أَصْرَرْتُ عَلَى أَنْ أَمْلأَ مِنْ بَعِيْدٍ عَيْنَيَ مِنْ مَرْأَى دَارِ أُمِّيْ رَحِمَهَا اللهُ؟.

لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظَرَ الشَحِيْحِ إلى غَرِيْمٍ مُفْلِسٍ، وَنَظَرَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَحِيْنَ بَدَأْتُ أَرْمُقُ الدَارَ التِيْ طَالَمَا مَلأَتْ قَلْبِيْ زَهْواً بِأَنْ كَانَ لأُمِّيْ -رَحِمَهَا اللهُ- بَيْتٌ يُنَاسِبُ مَقَامَهَا فِيْ قُلُوْبِنَا، حِيْنَ رَفَعْتُ عَيْنَيَّ صَوْبَ الدَارِ بَدَأَتْ صُوْرَتُهَا تَخْبُوْ فِيْ أَدْمُعِيْ:

ظَلَلْتُ كَأَنِّيْ مِنْ وِرَاءِ زُجَاجَةٍ
إلى الدَارِ مِنْ فَرْطِ الصَبَابَةِ أَنْظُرُ

فَعَيْنَايَ طَوْراً تَغْرَقَانِ مِنَ البُكَا
فَأَعْشَى وَطَوْراً تَحْسِرَانِ فَأُبْصِرُ

فَلا مُقْلَتِيْ مِنْ غَامِرِ الدَمْعِ تَنْجَلِيْ
وَلا دَمْعَتِيْ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ تُنْثَرُ

وَلَـيْسَ الـذِيْ يَجْـرِيْ مِـنَ العَـيْنِ دَمْعَهَـا

وَلَكِنَّهَـا نَفْـسِيْ تَـذُوْبُ فَتَقْطُـرُ[119]

فَهَـذَا المَنْـزِلُ الـذِيْ طَالَمَـا أَسْـعَدَنِيْ أَمْـسَى الآنَ يُحْزِنُنِـيْ وَيُشْجِـيْنِـيْ:

هَـذِيْ مَنَـازِلُ قَـدْ هَـيَّجْنَ لِـيْ شَـجَناً

وَكُنْـتُ أَعْهَـدُ فِـيْهَا مُـشْتَكَى الـشَجَنِ[120]

وَهَذِهِ الدَارُ التِيْ طَالَـمَا أَضْحَكَتْنِـيْ هَا هِـيَ ذِيْ قَدْ صَارَتِ اليَوْمَ بَعْدَ الأُنْسِ تُبْكِيْنِيْ :

عَهْـدِيْ بِـهَا تَكْتَـسِيْ أَبْـهَاجَ غُـرَّتِهَا

وَالبِـشْرُ يَقْطُـرُ زَهْـواً مِـنْ نَوَاحِـيْهَا

فَاعْجَـبْ وَمَـا قَـدْ أَرَاهَـا دَهْرُهَـا عَجَـبٌ

مَـنْ كَـانَ يُـضْحِكُهَا قَـدْ صَـارَ يُبْكِـيْهَا[121]

وَذَرَفْتُ دَمْعَةً غَالِيَةً مِنْ عَيْنِ عَصِيِّ الدَمْعِ شِيْمَتُهُ الصَبْرُ، ذَرَفْتُهَا حِيْنَ تَذَكَّرْتُ أَنَّنِيْ سَأَدْخُلُ الدَارَ، وَلَنْ أَجِدَ فِيْهَا حَبِيْبَةَ القَلْبِ (أُمِّيْ) بانْتِظَارِيْ، وَأَنَّهَا قَدْ رَحَلَتْ رِحْلَةً لا عَوْدَةَ مِنْهَا:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَـــلا تَـــسْأَلَنَّ القَلْـــبَ عَمَّـــنْ أَحَبَّـــهُ
فَفِـــي القَلْـــبِ مِـــنْ فَقْـــدِ الحَبِيْـــبَةِ نَـــارُ
وَهَـــلْ أَدْخُلَـــنَّ الـــدَّارَ مِـــنْ بَعْـــدِ أَهْلِهَـــا
فَـــمَا الـــدَّارُ مِـــنْ بَعْـــدِ الحَبِيْـــبَةِ دَارُ
لَقَـــدْ أَوْحَـــشَتْ دَارُ الحَبِيْـــبَةِ بَعْـــدَهَا
وَغَـــارَتْ نُجُـــوْمُ الأُنْـــسِ فَهْـــيَ سِرَارُ(122)

وَمَا زَالَتْ جُمُوْعُ الـمُعَزِّيْنَ تَتَابَعُ جَمَاعَاتٍ إِثْـرَ جَمَاعَاتٍ، فَأَفْوَاجٌ دَاخِلَـةٌ، وَأُخْـرَى خَارِجَـةٌ، وَالجَمِـيْعُ يَـسْعَى جَاهِـداً فِيْ مُحَاوَلَـةِ تَخْفِيْفِ الـمُصَـابِ وَتَسْكِينِ اللَوْعَةِ، وَعِنْدَئِذٍ أَدْرَكْتُ عَظَمَةَ هَـذَا الدِيْنِ الـحَنِيْفِ وَأَخْلاقَهُ النَبِـيْلَةَ؛ فَمَا أَعْظَمَ أَثَـرَ التَعْزِيَـةِ فِيْ نَفْسِ الـمُعَزَّى!!! وَقَدْ بَالَغَ مَنْ قَالَ:

يُعَـــزِّي الــــمُعَزِّيْ ثُـــمَّ يَمْـــضِيْ لِـــشَأْنِهِ
وَيَبْقَـــى الـــمُعَزَّى فِيْ أَحَـــرَّ مِـــنَ الـــجَمْرِ(123)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كَما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَانْفَضَّتِ الجُمُوْعُ، وَحَانَ وَقْتُ النَوْمِ لِمَنْ يُطِيْقُهُ، فَدَخَلْتُ غُرْفَةَ (أُمِّيْ) -رَحِمَهَا اللهُ- التي طَالَمَا آثَرَتْنِيْ بِهَا حِيْنَمَا أَحُلُّ ضَيْفاً عَلَيْهَا، فَوَجَدْتُ فِيْهَا مَنْ يَجْمَعُ ثِيَابَهَا وَأَشْيَاءَهَا الخَاصَّةَ، وَكَأَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُوْنَ مَحْوَ آثَارِهَا المُشْجِيَةِ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ أَنْ يَمْحُوا آثَارَهَا مِنْ فُؤَادِيَ الذِيْ أَحَبَّهَا كَمَا لَمْ يُحِبَّ أَحَداً فِي الدُنْيَا مِثْلَهَا رَحِمَهَا اللهُ، فَهَاجَتِ الأَشْجَانُ فِيْ قَلْبِيْ، وَتَحَشْرَجَتِ الدُمُوْعُ فِيْ حَلْقِيْ، وَتَلَعْثَمَتِ الكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِيْ، وَوَارَيْتُ دَمْعَةَ عَيْنِيْ:

كَمْ عَبْرَةٍ مَوَّهْتُهَا بِأَنَامِلِيْ
وَسَتَرْتُهَا مُتَجَمِّلاً بِرِدَائِيْ[124]

وَتَقَلَّبْتُ عَلَى الفِرَاشِ كَاللَدِيْغِ المُسَهَّدِ يَائِساً مِنَ النَوْمِ:

إِنْ كَانَ لِلنَّاسِ نَوْمٌ يَهْنَئُوْنَ بِهِ
فَإِنَّ جَفْنِيَ لَمْ يَهْنَأْ بِتَغْمِيْضِ
كَأَنَّ جَنْبِيَ فِي الظَلْمَاءِ تَقْرِضُهُ
عَلَى الحَشِيَّةِ أَطْرَافُ المَقَارِيْضِ[125]

وَأَذلَلْـتُ دَمْعـاً مِـنْ خلائِقِـهِ الكِـبْرُ[126]، وَكَانَـتْ لَيْلَـةً لَيْـسَتْ كَاللَّيَالِـيْ؛ فَفِـيْهَا النَوْمُ وَدَّعَ مُقْلَتِـيْ، وَاللَّيْلُ رَدَّدَ أَنَّتِـيْ، وَالفَجْـرُ لَـوْ بَانَـتْ بَشَائِرُهُ بَعْدَ رَحِيْلِ أُمِّي لَنْ يُـبَدِّدَ وَحْشَتِـيْ:

بِـــتُّ سَاجِـــي الطَّـــرْفِ وَالـــحُزْنُ يُلِـــحُّ

وَالـــدُّجَى إنْ يَمْـــضِ جُـــنْحٌ يَـــأْتِ جُـــنْحُ

يَلْمَـــــعُ الـــــدَمْعُ بِـعَيْنِـــــيْ شَـــــرَراً

وَلِزَنْـــدِ الـــحُزْنِ في الأَحْـــشَاءِ قَـــدْحُ[127]

وَمَـا أَطْـوَلَ اللَّيْـلَ عَـلَى الـسَاهِرِ!!![128]، وَلَيْـلُ الـحَـزِيْنِ بِـلا آخِـرٍ[129]:

تَطَـــاوَلَ لَـــيْلِيْ لَـــمْ أَنَـــمْهُ تَقَـــلُّباً

كَـأَنَّ فِـرَاشِيْ حَـالَ مِـنْ دُوْنِـهِ الـجَمْرُ[130]

فَكَيْفَ لِـمِـثْـلِـيْ أنْ ينَامَ؟

وَكَيْـــفَ تَرْقُـــدُ عَـــيْنٌ صَـــارَ مُؤْنِـــسُهَا

تَحْـتَ الـتُّرَابِ بِـــوَسْطِ القَـبْرِ والكَفَـنِ[131]

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِينَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

- أَيْنَ مَنْ كَانَ يُـؤْنِـسُنِـيْ بِـحَدِيْثِهِ العَذْبِ قَبْلَ الـمَـنَامِ؟.
- أَيْنَ مَـنْ كَـانَ يَـتَـفَـقَّـدُ فِـرَاشِـيْ قَـبْـلَ الـمَـنَـامِ؟.
- أَيْنَ مَنْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَسْعُلَ؛ فَأَحْرِمَهُ لَـذِيْـذَ الـمَـنَامِ؟.
- أَيْنَ مَـنْ كَـانَ يُـوْقِـظُـنِـيْ لِـصَـلاةِ الـفَـجْـرِ وَالقِيَامِ؟.
- أَيْنَ.... وَأَيْنَ.... وأَيْنَ....؟.

وَأَسْئِلَةٌ لا تَنْتَهِيْ، وَلَكِنْ لا جَوَابَ.... إلا جَـوَابٌ واحِـدٌ يَأْتِـيْ بِـلِسَانِ الـحَالِ، لا بِـلِسَانِ الـمَقَالِ، هُوَ: (لَقَدْ مَـاتَـتْ).

أَجَلْ، لَقَـدْ مَـاتَـتْ.... (**أُمُّ عبـدِاللهِ**)... وَغَـابَ عَنِّـيْ كِـيَانُهَا وَحُبُّهَا وَعَطْفُهَا وَحَنَانُـهَا:

وَلَمْ يَبْـــــقَ إلا ذِكْرَيَـــــاتٌ شَجِـــــــيَّةٌ

وَطَيْـــفٌ يُوَاتِيْنِـــــيْ إذا الطَـــرْفُ هَوَّمَـــا(132)

وَبَقِيْتُ وَحْدِيْ أَهِيْمُ فِيْ هَذِهِ الدُنْيَا الـمُوْحِشَةِ بِـلا أَنِيْسٍ، وَإِنْ كَثُرَ حَوْلِيَ الأَحْيَاءُ، وَإِنَّهُ لَبَقَاءٌ إلى حِيْنٍ:

وَلَــــئِنْ بَقِيْــــتُ وَقَـــدْ هَلَكْـــتِ فَـــإِنَّ لِيْ

أَجَـــــلاً وَإِنْ لَــــمْ أُحْــــصِهِ مَعْـــــدُوْدَا

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لا مَـــوْتَ لِـــيْ إِلاَ إِذَا الأَجَـــلُ انْقَـــضَى
فَهُنَـــــاكَ لاَ أَتَجَـــاوَزُ الـــــمَحْدُوْدَا
ومَـــعَ البَقَـــاءِ فَإِنَّـــنِيْ بِـــكِ لاَحِـــقٌ
مِـــنْ عَـــنْ قَرِيْـــبٍ لاَ أَرَاهُ بَعِيْـــدَا[133]

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ المُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِأُمِّيْ جِوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ المُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِأُمِّيْ جِوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أُمِّيْ وَأُمَّهَاتِ المُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِأُمِّيْ جِوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أَبِـيْ وَآبَاءَ المُسْلِمِيْنَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِأَبِـيْ جِوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

◉ رَحِمَ اللهُ أَبِـيْ وَأُمِّيْ وَآبَاءَ المُسْلِمِيْنَ وَأُمَّهَاتِهِمْ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَمَعَنِيْ بِوَالِدَيَّ جِوَارَ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ في الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ.

◉ وَرَحِمَ اللهُ كُلَّ مَنْ رَفَعَ يَدَيْهِ مُتَضَرِّعاً، وَدَعَا صَادِقاً مُخْلِصاً لِيْ وَلأُمِّيْ وَأَبِيْ بِالرَحْمَةِ وَالغُفْرَانِ، وَالفَوْزِ بِالجَنَّةِ، وَالعِتْقِ مِنَ النِيْرَانِ.

وَلا قَرَّتْ عَيْنُ مَنْ لا يَبَرُّ وَالِدَيْهِ.

وَلا نَامَتْ عَيْنُ مَنْ يَعُقُّ وَالِدَيْهِ.

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِي صَغِيْراً

عَبْرَةٌ مِنْ بَحْرِ دَمْعِي

● إلى مَنْ رَحَلَتْ؛ لِتَزْرَعَ فِيْ قَلْبِيَ الأَسَى والحُزْنَ بِغَيْرِ اِخْتِيَارٍ مِنْهَا وَلا مِنِّيْ.

● إلى مَنْ تَمَنَّتْ بَعْدَ رَحِيْلِهْا كُلُّ أُمٍّ لَوْ كَانَتْ هِيَ الرَاحِلَةَ؛ بِسَبَبِ كَثْرَةِ دُعَاءِ النَاسِ لَهَا وَثَنَائِهِمْ عَلَيْهَا.

● إلى مَنْ أَحْيَتْ بِمَوْتِهَا القُلُوْبَ، فَصَحَّ فِيْهَا قَوْلُ القَائِلِ :

(عَجَباً لأَمْوَاتٍ تَحْيَا بِذِكْرِهِمُ القُلُوْبُ، وَعَجَباً لأَحْيَاءٍ تَمُوْتُ بِمُجَالَسَتِهِمُ القُلُوْبُ).

● إلى مَنْ يُذَكِّرُنِيْ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ:

أَذَانُ المُؤَذِّنِ؛ فَمَا أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ إلا تَذَكَّرْتُ تَسْبِيْحَ أُمِّي

وَقِرَاءَةُ الإِمَامِ؛ فَمَا تَلا إمامٌ آيَةً إلا جَرَتْ دَمْعَتِيْ أَسَفاً عَلَى فِرَاقِ أُمِّيْ

وَنَسِيْمُ الصَبَاحِ؛ فَمَا هَبَّتْ نَسْمَةٌ إلا وَجَدْتُ فِيْهَا شَيْئاً مِنْ حَنَانِ أُمِّيْ

وَشَمْسُ الأَصِيْلِ فَمَا أَفَلَتْ شَمْسٌ إلا تَدَاعَتْ إلى مُخَيِّلَتِيْ صُوْرَةُ قَبْرِ أُمِّيْ

وَشَفَقُ الغُرُوْبِ؛ فَمَا احْمَرَّ شَفَقٌ إلا ذَكَرْتُ سَاعَةَ وَفَاةِ أُمِّيْ

وَرُؤْيَةُ أَيِّ أُمٍّ؛ فَما لَمحتُ أُمّاً إلا خَفَقَ قَلْبِـي حَزناً عَلى رَحِيلِ أُمِّي وَصَوْتُ أَيِّ أُمٍّ؛ فَما سَمِعْتُهُ إلا تَشَوَّفَتْ أُذُنايَ بِيَأْسٍ لأَحادِيثِ أُمِّي بَلْ كُلُّ هَمْزَةٍ وَمِيمٍ فَما مِنْ حَرْفٍ إلا يَنْشُرُ صَفَحاتِ الأُنْسِ مِنْ حَياةِ أُمِّي

- إلى مَنْ صَيَّرَتْنِي:

أَبِيْتُ عَلَى الذِكْرَى وَأَصْحُوْ بِمِثْلِهَا

وَإِنْ نِمْتُ لَمْ يَبْرَحْ خَيَالُكِ زَائِرِيْ[134]

- إلى مَنْ جعَلَتْنِيْ أَنَامُ عَلَى دَمْعَةٍ سَخِيْنَةٍ، وَأَصْحُوْ عَلَى دَمْعَةٍ سَخِيْنَةٍ.

- إلى أُمِّيَ الحَبِيْبَةِ -رَحِمَهَا اللهُ- حَيْثُ هِيَ هُنَاكَ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَرَى.

- إِلَيْكِ يَا أُمِّيَ الغَالِيَةَ - بَعْدَ أنْ أَسْأَلَ اللهَ لَكِ المَغْفِرَةَ والرِضْوَانَ - أُهْدِيْ:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

«عَبْرَةٌ مِنْ بَحْرِ دَمْعِيْ»[135]

أُحِبُّــكِ يَــا أُمِّــيْ عَــلَى القُــرْبِ والبُعْــدِ
أُحِبُّــكِ يَــا أُمِّــيْ وَلَــوْ كُنْــتِ فِي اللَحْــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ مَزَجْـــتُ رَحِيْـــقَهُ
بِبَحْـرٍ لَـصَارَ البَحْـرُ أَحْـلَى مِـنَ الـشَهْدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ يَـــسِيْرُ سَفِيْنـــهُ
عَــلَى الــيَمِّ أَلْــهَاهُ عَــنِ الــجَزْرِ وَالــمَدِّ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ أَظَـــلَّ سَحَابُـــهُ
لأَهْمَــى بِــلا بَــرْقٍ يَلُــوْحُ وَلا رَعْــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ سَـــقَيْتُ بِـــمَائِهِ
فَيَــافِيَ نَجْــدٍ أَوْرَقَ الــشِيْحُ فِيْ نَجْــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَـــوْ بَـــسَطْتُ رِداءَهُ
عَـلَى القَـاعِ فَـاقَ الـرَوْضَ بِالعُـشْبِ وَالرَنْـدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ نَثــرْتُ عَبــيْرَهُ

بِـدَرْبِ عَـرُوْسٍ مَـا اشْتَهَتْ عِطْرَهَـا الـوَرْدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ نَقَــشْتُ حُرُوْفَـــهُ

عَـلَى الـصَخْرِ ذَابَ الـصَخْرُ مِـنْ شِـدَّةِ الوَجْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ قَــدَحْتُ زِنَـــادَهُ

عَــلَى التــرْبِ أَوْرَى كَالـهَـشِيْمِ مَـعَ الزَنْــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ أَعَــرْتُ قَلِيْلَـــهُ

لِغَـــيْرِيَ لَــمْ يَكْــتُمْ عُقُوْقــاً وَلَمْ يُبْــدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ يَفِــيْضُ يَــسِيْرُهُ

عَـلَى النَـاسِ عَـاشَ النَـاسُ طُـرّاً بِـلا حِقْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّــاً لَـــوْ تَـــقَادَمَ عَهْـــدُهُ

لَكَـــانَ كَـــطِيْبِ العُــوْدِ يَزْكُــوْ مَــعَ العَهْـدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً تـزْدَهِـــيْهِ لَطَافَــــةٌ

أَرَقُّ مِــنَ الدِيْـبَاجِ فِــيْ نَــاعِمِ الأَيْــدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَيْلُـــهُ كَنـــهَارِهِ

غَنِــيٌّ عَـنِ الـشَمْسِ وَلا البَـدْرَ يَـسْتَجْدِيْ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً صَيْفُـــهُ كَـــشِتَائِهِ

رَبِـيْــعٌ مَرِيْــعٌ لا يُكَـــدَّرُ بِـالـــوِرْدِ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً فَـــاقَ حُبِّـــيْ أَحِبَّتِـــيْ

فَلَيْــسَ لِحُــبِّ الأُمِّ فِي القَلْــبِ مِــنْ نِـدِّ

أُحِبُّـــكِ حُـــبّاً أَعْجَــزَ الـشِعْرَ وَصْفُـــهُ

كَـمَا أَعْجَـزَ الوُصَّــافَ وَصْـفُ صَـبَا نَجْـدِ

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً لَــمْ يَــرَ النَــاسُ مِثْلَــهُ

بِــهِ تُــضْرَبُ الأَمْثَــالُ فِي صَــادِقِ الــوُدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّـــكِ حُبّـــاً مَـــا يُبَـــاعُ وَيُـــشْتَرَى
لأنَّ كُنُـــوْزَ الأَرْضِ دُوْنَ الـــذِيْ عِنْـــدِيْ

أُحِـــبُّكِ قَـــوْلاً وَاعْتِقَـــاداً وَمَـــسْلَكاً
جِـهَاراً وَمَـا أُخْفِـيْهِ فَـوْقَ الَـذِيْ أُبْـدِيْ

وَأَشْـــهَدُ أَنِّـــيْ رَغْـــمَ ذَاكَ مُقَـــصِّرٌ
بِـحَقِّ الَتِـيْ أَعْطَـتْ كَثِـيْراً وَلَـمْ تُـكْدِ

وَحُـــبُّكِ يَـــا أُمِّـــيْ وَلِـــيْداً عَرَفْـــتُهُ
وَأَرْضَـعْتِنِيْ إِيَّـاهُ مُـذْ كُنْـتُ فِي الـمَهْدِ

زَرَعْـــتِ وَأَسْقَـــيْتِ فَـــأَوْرَقَ وَاسْتَـــوَى
وَمَـا أَطْيَـبَ الأَثْـمَارَ فِـيْ مَوْسِمِ الحَـصْدِ

وَمَـــا سَاءَنِـــيْ إلا تَـأَخُـــرُ جَنْيِهَـــا
فَبَاذِرُهَـــا مَـــا نَـــالَ مِنْهَـــا سِـوَى الكَـدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِبُّــــكِ يَــــا أُمِّــــيْ وَحَبْـــلُ مَــــوَدَّتِيْ

عَـسِيْرٌ عَـلَى القَـطْعِ وَيَقْـوَى مَـعَ الـشَدِّ

أُحِبُّــــكِ وَالأَحْـــزَانُ لَيْــــلٌ يَحُـــوطُنِيْ

وَمَــا أَطْــوَلَ اللَيْــلَ البَهِــيْمَ بِــلا سَــعْدِ

إذا غَرَبَــــتْ شَـــمْسٌ بَكَيْــــتُ أُمَيْمَتِـــيْ

وَعِنْـدَ طُلُـوْعِ الـشَمْسِ أَبْكِــيْ مِــنَ الـسُهْدِ

وَإنْ بَــزَغَ البَــدْرُ بَــدَا كَاسِــفَ الـرُؤَى

تَوَشَّــحَ فِيْ هَــالٍ مِــنَ الـــحُزْنِ مُرْبَـــدِّ

وَتَــبْدُوْ عُيُــوْنُ اللَيْــلِ غِــيْضَ سَــنَاؤُهَا

وَكُــنْتُ بِــهَا قَــبْلاً إِذَا تِــهْتُ أَسْــتَهْدِيْ

وَحَتَّـــى نَــسِيْمُ الفَجْــرِ غَــيَّرَ طَبْعَــهُ

سَــمُوْماً غَــدَا بَعْــدَ الطَــرَاوَةِ وَالــبَرْدِ

فَــلا الْلَــيْلُ لَيْــلٌ مِثْلَمَــا كَــانَ رَاحَــةً

وَلا الــصُبْحُ مَوْعُــوْدٌ بِمُــسْتَوْجِبِ الــحَمْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

تَنُوحُ حَمَامُ الدَوْحِ مِثْلِيْ صَبَابَةً
وَمَا حُزْنُهَا حُزْنِيْ وَلا وَجْدُهَا وَجْدِيْ

فَقَدْ فَقَدَتْ إِلْفاً يُعَاضُ بِمِثْلِهِ
وَمَنْ يَفْتَقِدْ أُمّاً فَيَا بُؤْسَ لِلفَقْدِ

تَوَقَّدُ فِيْ جَنْبَيْهِ نَارُ الْتِيَاعِهِ
يَكَادُ لَظَاهَا يُشْعِلُ القَلْبَ بِالوَقْدِ

وَيَجْثِمُ كَابُوْسٌ مِنَ الغَمِّ وَالأَسَى
عَلَيْهِ فَيَنْهَدُّ بِهِ أَيَّمَا هَدِّ

ولِلْحُزْنِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى الفَتَى
عِيَاناً وَمَا تَخْفَى عَلَى الأَعْيُنِ الرُمْدِ

أَنِيْنٌ وَزَفْرَاتٌ وَغَمٌّ وَحَسْرَةٌ
وَكُلٌّ عَلَى كُلٍّ مِنَ البُؤْسِ يَسْتَعْدِيْ

هِيَ الأُمُّ نِبْرَاسُ الحَيَاةِ وَضَوْؤُهَا
إِذَا ارْتَحَلَتْ يَأْتِي الظَلامُ عَلَى الوَعْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِذَا قُـلْتُ : (يَـا أُمِّـيْ) بَكَـتْ كُـلُّ أَحْـرُفِيْ

عَـلَى فَقْـدِ مَـنْ كَانَـتْ يُؤَرِّقُـهَا فَقْـدِيْ

وَمَـنْ بَـانَ قَـدْ يَأْتِـيْ وَلَـوْ غَـابَ حِقْـبَةً

وَغَيْـبَةُ مَـنْ حَـلَّ القُبُـوْرَ بِـلا عَـوْدِ

أُحِبُّـكِ يَـا أُمِّـيْ وَسَـيْلُ مَـصَائِبِيْ

بِـمَوْتِكِ قَـدْ أَرْبَـى عَـلَى هَامَـةِ الـسَدِّ

وَحَسْبِيْ مُصَاباً أَنَّ فَقْدَكِ تَارِكِيْ

أُقَـضِّيْ خَـرِيْفَ العُمْـرِ مُسْتَوْحِـشاً

أُكَابِـدُ -مَكْـسُوْرَ الجَـنَاحَيْنِ- غُرْبَـةً

وَإِنْ كَـانَ لِـيْ فِي كُـلِّ وَادٍ بَنُـوْ سَعْدِ

وَمَـنْ رَامَ عَيْـشاً بَعْـدَ مَـوْتِ صَـفِيِّهِ

فَعَيْشٌ كَـلا عَيْشٍ وَإِنْ جَلَّ فِي العَدِّ

أُحِبُّـكِ يَـا أُمِّـيْ وَمَـنْ ذَا يَلُـوْمُنِيْ

لِحُزْنِـيْ عَلَيْكِ إِذْ سَبَقْتِ إِلى اللَحْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رَحَلْتِ بِأَفْرَاحِيْ وَأُنْسِيْ وَسَلْوَتِيْ
وَأَمْنِيْ وَآمَالِيْ وَحَفْزِيْ لَدَى جَهْدِيْ
فَأَصْبَحْتُ وَالإِمْسَاءُ مِثْلُ صَبَاحِهِ
كَلَفْظٍ بِلا مَعْنًى وَسَعْيٍ بِلا قَصْدِ
وَعَيْنِيْ عَلَى مَا فَاتَ تَذْرِيْ دُمُوْعَهَا
وَقَلْبِيْ إِلَى الآتِيْ يَسِيْرُ بِلا رِفْدِ
فَحُزْنِيْ عَلَيْكِ الدَهْرَ لَيْسَ بِبَارِحٍ
بِغَيْرِ جِوَارِيْ مَعْكِ فِيْ جَنِّةِ الخُلْدِ
سَلامٌ عَلَى الدُنْيَا تَنَاثَرَ عِقْدُهَا
وَقَدْ كُنْتِ يَا أُمَّاهُ وَاسِطَةَ العِقْدِ
سَلامٌ عَلَيْهَا عَدْلُهَا فِيْ بَلائِهَا
وَعَلْقَمُهَا مَا انْفَكَّ حَتَّى عَنِ الشَهْدِ
بِهَا المَوْتُ كَالمِنْشَارِ غَادٍ وَرَائِحٌ
وَمَنْ يَأْمَنِ الدُنْيَا يَجِدْ أَبْلَغَ الرَدِّ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إِذَا صَـــاحَ طِفْـــلٌ مُـــسْتَهِلاً حَيَاتَـــهُ
بَكَـى غَـيْرُهُ مَيْتـاً أَعَـزَّ مِـنَ الوِلْـدِ

وَإِنْ صَـــــفَّقَتْ دَارٌ سُرُوْراً تَـــــكَدَّرَتْ
دِيَـارٌ بِـهَـا فَالـضِدُّ يَحْيَـا مَـعَ الـضِدِّ

سَـــلامٌ عَـــلَى الدُنْـيَـــا سَـــلامَ مُـــوَدِّعٍ
يَـرَى أَنَّ بَطْـنَ الأَرْضِ آنَـسُ لِلعَبْـدِ

فَـمَنْ حَـامَ حَـوْلَ البِئْـرِ لا بُـدَّ وَاقِـعٌ
وَبِئْـرُ الـمَنَايَا فَـاغِرٌ فَـاهُ لِلْـوِرْدِ

لَقَــدْ آنَ تَرْحَالِــيْ وَغَـيْرِيَ لاحِقِــيْ
فَلَمْ تُبْقِ مَنْ قَـبْلِيْ لِتُبْقِـيَ مَنْ بَعْـدِيْ

وَلَـيْسَ مَـعَ الأَقْـدَارِ لِلْمَـرْءِ مَـهْرَبٌ
وَلا مَـسْلَكٌ يُنْجِـيْ وَلا حِيْلَـةٌ تُجْدِيْ

سَأَصْبِــرُ حَتَّـى يُـوْقِنَ الـصَبْرُ أَنَّنِــيْ
صَبُـوْرٌ وَلَوْ أَوْدَى بِـيَ الـصَبْرُ لِلَّحْدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

فَـصَبْرٌ جَمِـيْلٌ إنَّ فِـي الـصَبْرِ رَاحَـةً

وَأجْراً وَإنَّ الصَبْرَ هَـدْيُ أُولِي الرُشْـدِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رِسَالَةٌ إلى حَبِيْبَتِيْ

حَبِيْبَتِيْ:

لَمْ يَزَلْ مَكَانُكِ فِيْ قَلْبِيْ خَالِياً لا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُكِ.

وَلا تَحْلُمُ بِمُزَاحَمَتِكِ عَلَيْهِ أُخْرَى.

وَلَمْ تَزَلْ مَوَدَّتُكِ فِيْ قَلْبِيْ تَنْمُوْ وَتَكْبُرُ.

وَلا زِلْتُ أُمَنِّيْ النَّفْسَ بِانْتِهَاءِ هَجْرِكِ

وَسَقَيْتِنِيْ مِنْ مَاءِ هَجْرِكِ مَا لَهُ

أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُلالِ البَارِدِ(136)

فَقُوْلِيْ بِرَبِّكِ: هَلْ تَرْجِعِيْنْ؟

حَبِيْبَتِيْ :

كُنْتُ آنَفُ مِمَّنْ يَهْجُرُنِيْ يَوْماً أَنْ يُقْبِلَ عَلَيْهِ قَلْبِيْ مَرَّةً أُخْرَى

فَأَنْصَرِفُ عَنْهُ وَشِعَارِيْ:

إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِيْ عَنِ الشَيْءِ لَمْ تَكَدْ

عَلَيْهِ بِوَجْهٍ آخِرَ الدَهْرِ تُقْبِلُ(137)

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَكِنْ مَا بَالُكِ تَهْجُرِيْنَنِي سَنَوَاتٍ، وَقَلْبِـي مَعَ ذاكَ يَزْدَادُ بِـكِ تَعَلُّقاً وَلَكِ حُبّاً ؟ ألا تَشْعُرِيْنَ بِـحُبِّي الدَفِيْنْ ؟

حَبِـيْبَتِـيْ :

حِـيْنَـمَا حُرِمَتْ عَيْنِـيْ مِنْ رُؤْيَاكِ

وَأُذُنِـيْ مِنْ سَمَاعِ نَجْوَاكِ

وَقَلْبِـيْ مِنَ التَلَذُّذِ بِـلُقْيَاكِ

لَـجَأْتُ إلى الاسْتِمْتَاعِ بِـاسْتِرْجَاعِ الصُوَرِ البَهِـيَّةِ

لِتِلْكَ الأَيَّـامِ وَاللَيَالِي العَامِرَةِ بِـأَجْمَلِ الذِكْرَيَاتِ النَدِيَّةِ.

وَأَجْمِلْ كَنْزاً مِنَ الذِكْرَيَاتِ لِتِـلْكَ العُهُوْدِ التِـيْ لا تَعُوْدْ[138]

أَيُغْنِي الخَيَالُ مَكَانَ اليَقِـيْنْ؟

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

حَبِـيْبَتِـيْ

لَقَدِ اعْتَادَ العَاذِلُوْنَ أنْ يَفرَحُوْا بِـكُلِّ جَفْوَةٍ تَكُوْنَ بَيْنَ الأَحْبَابِ، لَكِنَّ هَجْرَكِ الطَوِيْلَ لِيْ أَثّـرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِـيْ حَيَاتِـيْ حَتَّى غَرَسَ الرَحْمَةَ لِيْ فِيْ قُلُوْبِ حُسَّادِيْ :

وَحَـــسْبُكَ مِـــنْ حَـــادِثٍ بِـــامْرِئٍ
تَـــرَى حَاسِدِيـــهِ لَـــهُ رَاحِمِيْـــنَا[139]

وَلا أَبْـتَغِـيْ رَحْمَةَ الـحَاسِدِيْنْ.

حَبِـيْبَتِـيْ :

السُهْدُ أَرَّقَنِـيْ، وَأَبْـلَـى مُهْجَتِـيْ.

وَالـحُزْنُ أَغْرَقَ بِـالـمَدَامِعِ مُقْلَتِـيْ.

وَالـهَجْرُ أَفْنَى مَا بَقَى مِنْ بَهْجَتِـيْ.

إنْ كَانَ يُرْضِـيْكِ شَقَائِـيْ صَارَ حَقّاً سَلْوَتِـيْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لَكِنَّنِـيْ وَعُقُوْدُ عُمْرِيْ كُلُّهَا هِـيَ حُجَّتِـيْ.

مَا كُنْتُ أَعْهَدُ فِيْكِ إلا مَا يُبَدِّدُ وَحْشَتِـيْ.

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنـْكِ إلا مَا يُكَفْكِفُ دَمْعَتِـيْ.

أَتـُرَاكِ غَـيَّرَكِ الزَمَانُ كَحَالِ كُلِّ العَالـَمِـيْنْ؟

حَبِـيْبَتِـيْ :

عُوْدِيْ... وَإنْ شِـئْتِ فَلا...

كُوْنِـيْ كَمَا يُمْلِـيْ عَلَيْكِ فُؤَادُكِ الذِيْ عَهْدِيْ بِـهِ أَنْقَى النَقَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإنْ شِـئْتِ فَلا...

لَكِنْ ثِقِيْ أنـِّيْ أَرَاكِ كُلَّ صُبْحٍ وَمَسَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإنْ شِـئْتِ فَلا...

فَخَيَالُكِ الـمَحْبُوْبُ أَصْبَحَ بُؤْبُؤاً لِلْعَيْنِ وَهْوَ لَـهَـا ضِـيَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإنْ شِـئْتِ فَلا...

فَالعُمْرُ آذَنَ بِـالرَحِيْلِ وَعِنْدَ ذاكَ يَكُوْنُ فِـيْهِ لَنَا لِقَاءْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

فَالقَبْرَ يَا أُمَّاهُ سِرْتِ إِلَيْهِ كَمَا يَسِيْرُ كُلُّ الأَتْقِيَاءْ.

عُوْدِيْ... وَإِنْ شِئْتِ فَلا...

مَا عَادَ مَيْتٌ قَبْلَ مَوْتِ (أُمَيْمَتِيْ) رَمْزِ الوَفَاءْ

لَكِنَّ رَحْمَةَ رَبِّنَا أَمَلٌ لِكُلِّ الآمِلِيْنْ.

أُمِّيْ

لعبد العليم اليوسفي

تَغــــمُرِيْنَ الأُفـــقَ ظِـــلاً وَنـــدَى
فِيْ مَتَاهَاتِـــيْ إِذَا اللَيْـــلُ بَـــدَا

تَنْثُـــرِيْنَ النـــوْرَ فِيْ دَرْبِـــيْ إِذَا
سِرْتُ كَالأَعْـــشَى عَـــلَى غـــيْرِ هُـــدَى

يَتـــعَرَّى اللَيْـــلُ مِـــنْ ظُلـــمَتِهِ
حِـــيْنَ تَغْـــشَيْنَ سَـــمَاهُ الأَسْـــوَدَا

أَتَغَنَـــاكِ مَـــعَ الـــصَحْوِ وَلا
تَـــبْرَحُ الأَحْـــلامُ مِنـــكِ مَـــوْرِدَا

اِسْـــمُكِ النـــاعِمُ إِذْ أَهْمِـــسُهُ
تُـــصْبِحُ النـــايَاتُ لِلْهَمْـــسِ صَـــدَى

أَلِـــفٌ يَتبَـــعُهُ مِـــيْمٌ فَـــمَا
أَجْمَـــلَ الحَرْفَـــيْنِ حِـــيْنَ اتـــحَدَا

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

لـــــمْ أَزَلْ أَعْـــشَقُ حِـــضْناً ضَمَّنِـــــيْ

لَيْــــتَ مَـــاضِي الأَمْــــسِ يَـــأْتِينِيْ غــــدَا

يَـــا لَحُبــِّـيْ لَـــكِ مَـــنْ يُحُـــصِيْهِ مَـــنْ ؟

هَــــلْ رِمَــــالُ الأَرْضِ تُـحْـــصَى عَــــدَدَا

فَلكـــــمْ أَشــــدُوْكِ (أُمِّـــيْ) وَلــــكَمْ

طَــــرِبَ الــــكَوْنُ لِــــشَدْوِيْ فَـــــشَدَا

إِنَّ حُبِّــــــيْ لَــــــكِ حُـــــبٌّ خـــــالِدٌ

يَتــــعَدَّى الــــمَوْتَ... يَجْتـــازُ الــــمَدَى

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

إلى أُمِّيْ[140]

للشاعر عبد العزيز جويدة

أنـا الكَلِماتُ تَحْتَرِقُ...

عَلَى شَـفَتِــيْ

وَأَنْفَاسِيْ تَهُبُّ كَمِثْلِ نِـيْرَانٍ عَلَى رِئَـتِـيْ

أنـا قُلْتُ: مَسَاءُ الـخَيْرِ يا أُمِّيْ

وَمَا رَدَّتْ...

تُرَاهَا قَدْ نَسَتْ لُغَتِـيْ؟

فَتَحْتُ البَابْ

وَأَغْلَقْتُ.. وَرَائِي البَابْ

وَنَادَتْنِيْ لَيَالِي الأَمْسِ وَالأَحْبَابْ

وَحَيَّيْتُ الذِيْ يَجْلِسْ..

جِـوَارِيْ دَائِمًا أَبَداً

مَسَاءُ الـخَيْرِ يَا حُزْنِـيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَرَدَّ الـحُزْنُ بـالتِرْحَابْ.

تَذَكَّرْتُ...

هُنَا وَجْهَكْ

وَوَجْهُكِ طَلَّةٌ مِنْ نُوْرْ

وَقَلْباً يُشْبِـهُ البَلُّوْرْ

وَتَسْبِـيْحاً وَتَكْبِـيْراً

وَعِطْرَ بَخُوْرْ.

تَذَكَّرْتُ...

هُنَا التَـنُّوْرْ.

وَخُبْزًا جَافْ.

وَظِلَّ شُجَيْرَةِ الصَفْصَافْ

وَضَمَّةَ صَدْرِكِ الـحَانِـيْ

عَلَى طِفْلٍ رَضِـيْعٍ خَافْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

تَذَكَّرْتُ..

دُعَاءَكِ فِيْ صَلاةِ الفَجْرْ

تَذَكَّرْتُ الكَلامَ الـحُلْوَ فِيْ يَوْمٍ

تَذَكَّرْتُ الكَلامَ الـمُرْ

وَيَوْمَ سَأَلْتِنِـيْ مَرَّةْ

عَنِ الـمَوْتِ

وَأَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي القَبْرْ

وَعَنْ حَالِ السِنِـيْنَ هُنَاكْ

وَكَيْفَ تَـمُرْ؟

وَمَرَّ العُمْرْ

وَصَارَ الـمُرُّ فِيْ حَلْقِيْ

هُنَاكَ أَمَرْ

وَظَلَّ السِرُّ مَطْوِيّاً

وَخَلْفَ السِرْ

أَنَا مَا زِلْتُ يَا أُمِّيْ عَلَى قَبْرِكْ

هُنَا طِفْلاً..

يَبِــيْعُ الصَبْرْ

أُنَادِيْكِ

وَأَنْتَظِرُ.. يَجِــيْءُ الرَدْ

وَأَصْبَحَ بَيْنَنَا سَدٌّ

وَمَاذا خَلْفَ هَذَا السَدْ

بَدَأْنَا العَدّ

أَنَا طِفْلٌ حَدِيْثُ العَهْدِ بِــاليُتْمِ

وَلا أَدْرِيْ وَمَاذا بَعْدْ؟

فَمَنْ بَعْدَكْ..

عَلَيَّ يَرُدْ؟

وَمَنْ بَعْدَكْ..

إذا قَبَّلْتُ كَفَّيْهِ..

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

أَذُوْقُ الشَهْدْ؟

وَمَنْ يَمْسَحْ..

عَلَى رَأسِيْ إذا آسَى؟

وَمَنْ بَعْدَكْ..

يُقَبِّلُنِيْ لِكَيْ أَنْسَى؟

وَمَنْ في الصُبْحِ أَشْتَمُّ..

بِـأَنْفَاسِهْ..

عَبِـيْرَ الوَرْدْ؟

دَخَلْتُ الآنَ حُجْرَتَكِ

وَجَدْتُ النُوْرَ قَدْ غَادَرْ

وَطِيْبَكِ مِنْ هُنَا سَافَرْ

سَأَلْتُ النُوْرَ عَنْ شَيْءٍ هُنَا تَرَكَهْ

لِـمَاذا البَيْتُ مَا عَادَ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَلا صَوْتٌ وَلا حَرَكَةْ

وَلا خَيْرٌ وَلا بَرَكَةْ؟

هُنَا مَا زَالَ مَقْعَدُكِ

وَصَوْتٌ مِنْ كَلامِ الأَمْسْ

جَمِيْعًا كُنَّا نَنْتَظِرُكْ

فَهُلِّيْ مِثْلَمَا أنْتِ

فَقَدْ كُنْتِ..

هُنَا بِالأَمْسْ

وَبَيْنَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ

تَغَيَّرْنَا.

فَلا شَكْلٌ وَلا لَوْنٌ

وَلا طَعْمٌ وَلا مَعْنَى

وَلا أنْتِ..

هُنَا مَعَنَا

لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي العُمْرِ يَا أُمِّيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

نَذُوقُ اليُتْمَ أَجْمَعنَا

نُغَمِّسُ خُبْزَنَا اليَابِسْ..

بِأَدْمُعِنَا

هُنَا بَخَّاخةُ الرَبْوِ وَمِسْبَحَتُكْ

وَطَرْحَتُكِ وَسِجَّادَةْ

وَمِذْيَاعٌ صَغِيْرٌ

يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالعَادَةْ

أَتَى العِيْدُ وَلَمْ يطْرُقْ عَلَى بَابِيْ هُنَا أَحَدٌ

تَعَجَّبْتُ..

تُرَى قَدْ جَاءَ هَذَا العَامُ يا أُمِّيْ

بِلا أَعْيَادْ؟

وَلَمْ أَسْمَعْ هُنَا صَوْتَكْ..

يُنَادِيْنِي

فَنَادَيْتُ... وَنَادَيْتُ...

وَخَوْفٌ دَاخِلِيْ يَزْدَادْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَأَيـنَ فُطُوْرُنَا أَيـنَ

وَأَيْنَ جَمِيْعُ مَنْ فِي البَيْتِ

يَلْتَفُّوْنَ مِنْ حَوْلِكْ؟

هُنَا كُنَّا عَلَى مِـيْعَادْ

هُنَا فِي البَهْوِ نَنْتَظِرُكْ

وَهَذَا الـمَقْعَدُ الـخَالِيْ

أُحَدِّقُ فِـيْهِ..

وَيَقْتُلُنِيْ سُؤَالٌ دَارَ فِيْ بَالِيْ

طَرَقْتُ البَابَ لَمْ أَسْمَعْ..

هُنَا صَوْتَكْ

وَنَادَيْتُ: أَيَا أُمِّيْ.. أيَا أُمِّي

فَتَحْتُ البَابَ فِيْ صَمْتٍ

سَرِيْرُكِ هَا هُنَا خَالِـيْ

وِسَادَتُكِ وَجِـلْبَابُكْ وَمِسْبَحَتُكْ

وَبَسْمَتُكِ.. دُعَابَتُكْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَمَصْرُوْفٌ لأَطْفَالِـيْ

وَأَدْوِيَةٌ مُبَعْثَرَةٌ

سُؤَالُكِ دَائِماً عَنِّيْ

وَعَنْ حَالِـيْ

وَرُقْيَتُكِ وَدَعْوَتُكِ

وَنَوْمِيْ فَوْقَ رُكْبَتِكِ

وَنَظْرَتُكِ وَضَمَّتُكِ وَقُبْلَتُكِ

وَحِضْنٌ فِيْهِ آمَالِـيْ

بِـأَنْ أَرْتَاحَ مِنْ تَعَبِـيْ وَتِرْحَالِيْ

تَسَاقَطْتُ... عَلَى الأَرْضِ

لأَنَّ العَجْزَ قَدْ دَبَّ. .

بِـأَوْصَالِـيْ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِسُّكِ دَائِماً قُرْبِـــيْ تُنَادِيْنِـــيْ

بِـــكُلِّ مَسَاءْ

فَأَجْرِيْ نَحْوَ غُرفَتِكِ

بِـكُوْبِ السَماءْ

وَقُرْصِ دَوَاءْ

فَلا أَجِـدُكْ. . .

أَضُمُّكِ دَاخِلِـيْ وَأَذُوْب

فَلا يَبْقَى هُنَا مِنِّيْ وَلا مِنْكِ

سِوَى أنـَّا

فَنَاءٌ ذَائِبٌ بِـفَنَاءْ

وَقَدْ أَعْطَيْتِنِـيْ رُوْحًا

فَحَلَّقْتُ. .

أنَا مَعَكِ

بِـكُلِّ سَمَاءْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

فَيَا أُمِّي التِـي اخْتَصَرَتْ بِـدَاخِلِنَا..

مَوَاسِمَنَا

فَصِرْنَا وَالسِنِيْنَ بُكَاءْ

مُسَافِرَةٌ إلى أيـْنَ حَبــِيْبَتَنَا

مُسَافِرَةٌ بِـلا أَشْيَاءْ

حَقِيْبَتُكِ التِيْ كَانَتْ

تُسَافِرُ دَائِماً مَعَكِ

نَرَاهَا لا تُطِـيْقُ بَقَاءْ

ضَحِكْتِ عَلَيْنَا واللهِ

وَسَافَرْتِ عَلَى اسْتِحْيَاءْ

بِـغَيْرِ وَدَاعْ

وَسَافَرْتِ. .لأَبْعَدِ نُقْطَةٍ في الكَوْنِ

سَافَرْتِ بِـلا أَشْيَاءْ

سِوَى زَادٍ مِنَ التَقْوَى

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَإِيْمَانٍ كَنَبْعِ السَّمَاءْ

تُرَاكِ الآنَ يَا أُمِّيْ

بِـأَيِّ سَمَاءْ؟
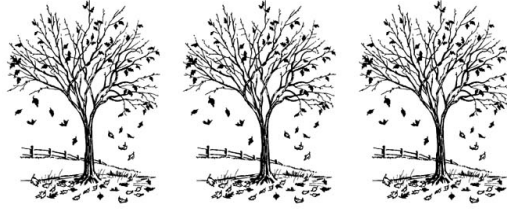
وَتَعْبِـسُ حَوْلَنَا الأَشْيَاءُ مُعْلِنَةً

قُدُوْمَ الـمَوْتْ

قِطَارٌ سَوْفَ يَحْمِلُنَا لِـبُلْدَانٍ

وَنَجْهَلُهَا

نُسَمِّيْهَا بِـلادَ الصَمْتْ

لِدَارٍ غَيْرِ تِلْكَ الدَارِ يَا أُمِّيْ

وَبَيْتٍ غَيْرِ هَذَا البَيْتْ

أُنَادِيْكِ

وَأَصْرُخُ دَائِماً وَحْدِيْ

بِـأَعْلَى صَوْتْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

رَجَوْتُكِ أنْ تُجـيبِـيْنِيْ

وَأَنْ تبْقَيْ هُنَا مَعَنَا

لِبَعْضِ الوَقْتْ.

أنَا أَمْسَكْتُ بِـالـهَـاتِفْ

لأَطْلُبَ نَفْسَ أَرْقَامِكْ

فَكَمْ يَأْتِـيْ جَمِيْلاً رَائِعاً رَدُّكْ

إذا كَانَتْ مُهَاتَفَتِـيْ

مُفَاجَأَةً

وَمَا دَارَتْ بِـحُسْبَانِكْ

بِـكِلْمَاتٍ تُزَلْزِلُنِيْ..

تَرُدِّيْنَ

وَتَخْتَصِرِيْنَ قَامُوْساً

مِنَ الكَلِمَاتِ فِيْ ذَلِكْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

أُحِسُّ بِـقَلْبِـكِ الـمَلْهُوْفِ يَنْصَهِرُ

عَطَاءً مُرْهِقاً جِـدّاً

يُغَالِبُ مَا بِـإِمْكَانِكْ

فَأَيُّ حِكَايَةٍ أَنْتِ

وَكُلُّ مَنَابِـعِ الـحُبِّ

تَصُبُّ الـحُبَّ فِيْ ذَاتِكْ

أَنَا مِنْ جَمِّ تَوْقِـيْرِكْ وَإِجْلالِكْ

فَلَوْ كَانَ. .

لِغَيْرِ اللهِ مَسْمُوْحٌ بِـأَنْ أَسْجُدْ

لَعِشْتُ العُمْرَ يَا أُمِّيْ

لأَسْجُدَ عِنْدَ أَعْتَابِـكْ

أَنَا مَا زِلْتُ وَالـهَـاتِفْ

وَعِشْـرُوْنَ مُـحَاوَلَةً

فَـرُدِّيْ مِـثْـلَـمَـا كُنْتِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

وَصُبِّيْ دَاخِلَ الشِرْيَانِ تَـحْنَانَكْ

فَهَذَا اليَوْمُ عِـيْدُ النَاسِ يَا أُمِّيْ

وَأُغْنِـيَةٌ أنَا قَدْ عِشْتُ أَعْشَقُهَا

وَأَنْتِ السِرُّ فِيْ ذَلِكْ

أَتَى العِـيْدُ

وَهَاتِفُكِ يَرِنُّ وَلا تُجِـيْبِــيْنَ

هَدَايَاكِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ أَحْبَابِـكْ

وَلَكِنْ لَمْ نَكُنْ نَدْرِيْ

بِـأَنَّكِ دُوْنَ أنْ نَدْرِيْ

هُنَا غَيَّرْتِ عُنْوَانَكْ.
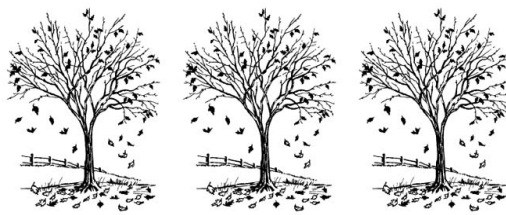
أنَا النَدْمَانُ مِنْ رَأْسِيْ إلى قَدَمِـيْ

أنَا نَدَمِـيْ

عَلَى أنِّـيْ تَرَكْتُكِ لَـحْظَةً فِي العُمْرِ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

مَا كُنْتِ مَعِـيْ فِـيْهَا

فَعُوْدِيْ لِـيْ وَأُقْسِمُ لَكْ

بأنِّـيْ كُلَّ أَيـَّامِـيْ سَأَقْضِـيْهَا

لأَجْلِسَ عِنْدَ أَقْدَامِكْ

أُقَـبِّلُهَا وَأَحْمِلُهَا عَلَى رَأْسِـيْ

أُهَدْهِدُهَا أُغَطِّيْهَا

فَقَدْ خَدَعَتْنِـيْ أيـَّامِـيْ

وَرِحْلَةُ عُمْرِنَا مَرَّتْ

وَلَمْ أَعْرِفْ

تَوَاعَدْنَا عَلَى شَيْءٍ

أنَـا وَالله لَمْ أُخْـلِفْ

وَلَكِنْ أَخْلَفَ الـمَوْتُ. .

الذِيْ فِيْ لَـحْظَةٍ يَخْطَفْ

تَـخَيَّلْتُ..

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بِـأَنَّ العُمْرَ مُمْتَدٌّ

وَأَنَّ هُنَاكَ مُتَّسَعاً مِنَ الأَيَّامْ

وَكَمْ كَانَتْ لَدَيْنَا هَاهُنَا أَحْلامْ

رَأَيْتُ الـمَوْتَ في عَيْنَيْكِ فِيْ يَوْمٍ

وَلَكِنْ خِلْتُهَا أَوْهَامْ

حَكَيْتِ لَنَا عَنِ الـمَاضِيْ

تَرَكْتِ بِـدَاخِلِيْ جُرْحاً

كَأَلْفِ عَلامَةِ اسْتِفْهَامْ

وَمَرَّ الوَقْتُ لَمْ نُكْمِلْ

وَقَدْ قُلْنَا

غَدًا بِـإِذْنِ اللهِ نَسْتَكْمِلْ

وَجَاءَ الغَدُ يَا أُمِّيْ

وَهَا أَنَـذَا وَحِيْداً ضَائِعاً مُهْمَلْ

فَبَعْدَكِ يَا أَحَبَّ النَاسْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

بِـــهَذَا القَلْبِ مِنْ بَعْدِكْ

أنَــا مَاذَا بِـــهِ أَفْعَلْ؟

جَمِيْلٌ كُلُّ شَيْءٍ فِيْكِ يَا أُمِّيْ

جَمِيْلٌ كُلُّ شَيْءٍ كَانْ

بِـــحَقٍّ كُنْتِ رَائِعَةً وَيَافِعَةً

وَيَانِعَةً كَمَا البُسْتَانْ

رَأَيْـــتُكِ بَسْمَةً تَـمْتَدُّ شَلالاً

وَتَسْكُنُ مَدْخَلَ الشِرْيَانْ

حَنَانُكِ عَالَمٌ يَـمْتَدُّ دَاخِلَنَا بِـــلا آخِرْ

بُحُوْرٌ مَا لَـــهَـا شُطْآنْ

وَجُوْدُكِ وَحْدَهُ كَافٍ

لِـيَبْعَثَ دَاخِلِـيْ اطْمِئْنَانْ

فَفِـيْ كَفَّيْكِ يَا أُمِّيْ

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيانِيْ صَغِيْراً

شُطُوْطُ أَمَانْ

أُحِسُّكِ رَغْمَ مَا فِيْكِ

كَأَنَّكِ قَدْ فَرَشْتِ الأَرْضَ

مِنْ تَحْتِ البَشَرْ..

أَحْضَانْ

صَلاحٌ مَا لَهُ آخِرْ

وَأَنْتِ كَرَوْضَةٍ كُبْرَى مِنَ الإحْسَانْ

تَصَالَحْتِ مَعَ النَاسِ

فَمَا أَغْضَبْتِ فِيْ يَوْمٍ هُنَا إِنْسَانْ

وَمَا يَوْماً طَلَبْتِ مَتَاعَ دُنْيَانَا

فَمَا شَيْءٌ عَلَى قَلْبِكْ..

لَهُ سُلْطَانْ

تَعَلَّقْتِ بِحَبْلِ اللهِ فِيْ صَبْرٍ

وَكُنْتِ بِكُلِّ نَائِبَةٍ لَكِ البُرْهَانْ

يَجِـيْءُ الفَجْرُ يَسْأَلُـنِـيْ

يَدُقُّ البَابَ فِيْ خَجَلٍ

كَطِفْلٍ تَائِهٍ حَيْرَانْ

وَيَجْلِسُ يَنْزَوِيْ وَحْدَهْ

وَيَسْأَلُ عَنْكِ يَا أُمِّيْ

فَصَوْتُ مُؤَذِّنِ الفَجْرِ

هُنَا قَدْ حَانْ

فَلا صَوْتٌ لِـهَذَا البَيْتِ مِنْ بَعْدِكْ

فَأَيْـنَ الآنَ هَمْهَمَتُكْ

بِـتَسْبِـيْحٍ وَتَهْلِيْلٍ

وَتَرْتِـيْلٍ مِنَ القُرْآنْ

فَقَدْنَاكِ.. عَلَى غِرَّةْ

وَسَافَرْتِ..

وَلا نَدْرِيْ لأَيِّ مَكَانْ

لأوَّلِ مَرَّةٍ في العُمْرِ تَغْتَرِبِـيْنَ يَا أُمِّيْ

وَسَافَرْتِ. .

إلى الأَبدِ..

بلا اسْتِئْذَانْ...

اللهُمَّ يا خَيْرَ الرَاحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

تخريج الأبيـات الشعريّة

◉ يكثرُ السؤالُ عن قائلِ هَذِهِ الحكمةِ التي عَنْوَنْتُ بها الكتابَ:

(يظلُّ الرجلُ طفلاً حَتَّى تموتَ أمّه، فإذا ماتتْ شاخَ فجأةً).

وللجواب عن ذلك السؤال أقولُ:

أوّل مَا قرأتُ هَذِهِ العبارة كان في كتاب (متعة الحديث: ص 41) لعبدالله بن محمد الداوود، ولم يعزها المؤلف لأحد.

وَقَدْ وجدتها منسوبة لمحمد عبدالوهاب في (صحيفة الجزيرة السعوديّة: يوم الجمعة 20/ 5/ 1419هـ الموافق 11/ 9/ 1998م، ثمّ في صحيفة الجزيرة نفسها "العدد 10172" الصادر في يوم الجمعة 4/ 5/ 1421هـ الموافق 4/ 8/ 2000م نُسِبَتْ إلى كمالة عثمان حسين). وهناك مَنْ قالَ لي: إنّها حكمةٌ صينيّةٌ، لكنّه لم يأتِ بدليلٍ على ذلك.

(1) عجز بيت لسعيد بن حميد، وصدره:

العُسْرُ أُكْرِمُهُ لِيُسْرٍ بَعْدَهُ

(2) البيتان لأبي العتاهية.

(3) البيتان لابن الرومي بتصرّف.

(4) البيتان للخليل بن أحمد الفراهيديّ.

(5) البيت لناصيف اليازجي.

(6) البيت لأحمد الرفاعي.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(7) شطر بيت في كتاب (الحيوان) للجاحظ، ولم أعرف تكملته.

(8) الأبيات للشاعر محمد إقبال رحمه الله ترجمها شعراً للغة العربية الشيخ الصاوي علي شعلان .

(9) من عجز بيت لأبي تمام :

وَأَشجَيتُ أَيّامي بِصَبرٍ جَلَونَ لي عَواقِبَهُ وَالصَبرُ مِثلُ اسمِهِ صَبرُ

(10) بيتٌ مشهورٌ لم أعرف قائله.

(11) عجز بيت لأبي الشيص الخزاعيّ، صدره:

يُصَبِّرُني قَرمٌ بُراءٌ مِنَ الهَوى

(12) البيتان للدكتور سلمان العودة.

(13) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(14) البيت لابن الروميّ.

(15) البيت لأبي العتاهية.

(16) البيت لقاسم الكستيّ.

(17) البيتان لأبي العتاهية، وَقَدْ أَجَابَهُ الشاعر صالح بن عبدالقدوس:

الدارُ جنّةُ عَدْنٍ إنْ عَمِلْتَ بما يُرْضِي الإلَهَ وإنْ فَرَّطْتَ فالنارُ

هُمَا مَحِلانِ مَا لِلنَاسِ غَيْرُهُمَا فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ماذا أنتَ مُخْتَارُ

(18) البيت لقطريّ بن الفجاءة.

(19) البيت لإيراهيم بن هرمة.

(20) عجز بيت لأبي العتاهية، وصدره:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

مـــا كـــلّ مَـــا يتمنّـــى المـــرءُ يدركـــه

(21) البيتان لابن المعتزّ.

(22) البيت لابن الجيّاب الغرناطيّ.

(23) الأبيات لحسن بن علي بن جابر الهبل اليمنيّ.

(24) البيت لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(25) البيت لمحمد بن عبدالله بن عثيمين.

(26) البيتان لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(27) البيت لابن شهيد الأندلسيّ.

(28) البيت لأبي الشيص الخزاعيّ، وقافيته عنده: (حاجة أو تطرّبُ).

(29) البيت للخطيب البغداديّ.

(30) الأبيات لابن نباتة السعديّ.

(31) البيتان بلا نسبة في (خلاصة الأثر في أعيان القرن الثاني عشر).

(32) البيت لمحمود سامي الباروديّ.

(33) الأبيات لأبي يعقوب إسحاق بن حسّان الخريميّ.

(34) البيت لصالح بن عبدالقدوس.

(35) البيت للموصليّ.

(36) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(37) البيت لعديّ بن الرعلاء الغسّانيّ.

(38) البيت لغلام سمعه الأصمعيّ منه، كما في (زهر الأكم في الأمثال والحكم).

(39) البيت لأبي الشيص الخزاعيّ.

(40) البيتان لفتح الله حوّاص.

(41) الأبيات لأبي العتاهية.

(42) الأبيات - بتصرّف - لعمر بهاء الدين الأميريّ يرثي أمّه، رحمهما الله جميعاً.

(43) هو ابن أخي / ريّانُ بنُ خالد العايد، المولود في الرس بمنطقة القصيم يوم 3/ 8/ 1420هـ

(44) مطلع قصيدة عمر بهاء الدين الأميريّ في رثاء أمّه، رحمهما الله.

(45) البيت لسعيد بن محمّد الغشريّ.

(46) البيت لراشد الدوسريّ.

(47) البيت للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(48) الأبيات لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل.

(49) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه. ويلاحظ أنّ المؤلف قد ابتدع في البحر الكامل وزناً جديداً، فقد زاد تفعيلة خامسة على مجزوء الكامل ذي القافية المرفّلَةِ.

(50) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(51) الأبيات لفاروق جويدة.

(52) البيت لابن عبد ربّه الأندلسيّ.

(53) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(54) عجز بيت للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدة في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله، وصدره:

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

ســـــتأتيه زَيْـــــنٌ للنـــــساءِ مليحـــــةٌ

(55) عجز بيت أَيْضاً للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدته في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله، وصدره:

ســــــــتأتيه أمٌّ للعفــــــــافِ كريمــــــــةٌ

(56) بيت أَيْضاً للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ من قصيدته في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(57) بيتان للدكتور صالح بن حمد المالك من قصيدة له في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(58) البيت لابن سنان الخفاجيّ، وعجزه لديه:

يعيــــــي البليــــــغ وإن خَبــــــِرْتَ فَخَـــــبِّرِ

(59) عجز بيت للحطيئة، وصدره:

مــــــاذا تقــــــول لأفــــــراخ بــــــذي مــــــرخٍ

(60) بيتان للدكتور زاهر بن عوّاض الألمعيّ في رثاء والدته رحمها الله.

(61) بيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل.

(62) أبيات لأبي فراس الحمدانيّ.

(63) أبيات للشريف الرضيّ.

(64) البيتان لأبي الفتح البستيّ.

(65) بيتٌ مشهورٌ لأعرابيٍّ مغمورٍ.

(66) البيتان لأبي الفتح البستيّ.

(67) البيت لأبي فراس الحمدانيّ.

(68) عجز بيت لمحمد بن البعيث الربعيّ، وصدره:

ســـــــأتلفُ المـــــال في عـــــسر وفي يَـــــسَرٍ

(69) بيت لَمْ أعرف قائله، والبيت في (جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكريّ).

(70) البيت لمروان بن أبي حفصة.

(71) البيتان لإيليا أبي ماضي.

(72) البيت للبحتريّ.

(73) الأبيات للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(74) الأبيات لجورج جورداق (بتصرّف).

(75) البيت للبحتريّ بتصرّف.

(76) البيت للدكتور إبراهيم ناجي.

(77) البيت للخنساء.

(78) الأبيات للدكتور أحمد بن عثمان التويجريّ في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(79) عجز بيت للواح، صدره:

ذئــــــابٌ عَلَيْهَـــــــا مـــــــلاحُ الثيــــــابِ

(80) البيت لأبي القاسم الداوديّ.

(81) البيت للشريف الرضيّ.

(82) البيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل في رثاء أمّه.

(83) الأبيات للأستاذ موسى بن محمد السليم في أمّه رَحِمَهَا الله.

(84) البيت لمحمود سامي البارودي.

(85) الأبيات للشيخ علي المبارك.

(86) البيتان للدكتور صالح بن حمد المالك في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(87) البيتان لأحمد رامي غفر الله له.

(88) البيت لابن نباتة المصريّ.

(89) الأبيات للدكتور صالح بن حمد المالك في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(90) البيت للمؤلف غفر الله له ولوالديه.

(91) البيتان لابن حمديس الصقلّيّ.

(92) الأبيات للدكتور محمود السيّد الدُغيم في رثاء أمّه رَحِمَهَا الله.

(93) الأبيات لأبي فراس الحمدانيّ.

(94) أبيات من ديوان (ريشة من جناح الذلّ) لحسن بن محمد الزهرانيّ في رثاء أمّه رحمها الله.

(95) البيتان لصالح الشرنوبيّ (بتصرّف).

(96) توفي والدي – رحمه الله – ليلة الاثنين الموافقة 1/ 1/ 1387 هـ في الرس، بمنطقة القصيم.

(97) البيتان لأبي إسحاق الصابي.

(98) البيتان لمحمد بن عبدالمطلب بن واصل في رثاء أمّه.

(99) البيتان للمؤلف غفر الله له ولأبويه.

(100) عجز بيت لمحمد بن سكرة الهاشميّ، وصدره:

فقلت حالي بحالٍ من رثاءتها

(101) عجز بيت لابن غلبون الصوريّ، وصدره:

هم يحسدوني عَلَى موتي فوا أسفي

(102) صدر البيت لجرير، وعجزه للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(103) الأبيات لأعرابيّ لَـمْ يبيّن اسمه في: (ذخائر البصائر لأبي حيّان التوحيديّ).

(104) عجز بيت لمحمد بن عبيدالله العتبيّ، وصدره:

فلله ما أعطى ولله ما جرى

(105) البيتان ينسبان لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وليسا في ديوانه.

(106) البيت لضابئ البرجميّ.

(107) البيت لإبراهيم بن العبّاس الصوليّ.

(108) عجز بيت لمجنون ليلى، وصدره:

يا ربّ لا تسلبنّي حبّها أبداً

(109) البيت لسالم بن غسّان اللوّاح.

(110) البيت لابن الروميّ في رثاء أمّه.

(111) البيتان لمحمد بن أميّة.

(112) البيت للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(113) أبيات لشاعر يمنيّ مجهول.

(114) البيتان الأوّلان لشمس الدين محمد بن أحمد الكوفيّ، وباقي الأبيات للمؤلف.

(115) أبيات لخليل السكاكينيّ.

(116) الأبيات للشاعر محمد إقبال رحمه الله.

(117) من قول القاضي عبدالوهاب بن نصر الفقيه المالكيّ:

فقلت لهم كُفُّوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخصُ

(118) عجز بيت للخنساء رحمها الله.

(119) الأبيات لجران العود النمريّ.

(120) البيت بلا نسبة في (المنتحل لأبي منصور الثعالبيّ).

(121) البيتان لحيدر بن سليمان الحلّيّ.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

(122) الأبيات لعبدالله بن غانم الأنصاريّ المقدسيّ (بتصرّف شديد).

(123) البيت لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(124) البيت للشريف الرضيّ.

(125) البيتان لابن الروميّ.

(126) .عجز بيت لأبي فراس الحمدانيّ، وصدره:

إذا الليـــل أضـــواني بـــسطتُ يـــد الهـــوى

(127) البيتان لفتح الله بن النحاس.

(128) عجز بيت للبحرانيّ، وصدره:

بـــــتُّ ومــــا أعــــرفُ طيــــفَ الكــــرى

(129) عجز بيت لخالد الكاتب، وصدره:

رقــــــدتَ ولم تَــــــرْثِ للــــــساهرِ

(130) البيت للأبيرد بن المعذر الرياحيّ

(131) بيت لجارية مجهول اسمها.

(132) البيت لمحمود سامي الباروديّ.

(133) الأبيات للأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح.

(134) البيت للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(135) القصيدة للمؤلف غفر الله له ولأمّه وأبيه.

(136) البيت لابن زيدون الأندلسيّ.

(137) البيت لمعن بن أوس المزنيّ.

(138) البيت لأبي القاسم الشابي.

(139) البيت لمحمد بن عبيد الله العتبيّ الأمويّ.

(140) حرصتُ على استقصاء كلّ مَا كُتِبَ في الأمّهات شعراً ونثراً، وَلا سيّما مَا كان رثاءً، فاصطفيتُ من قصائد رثاء الأمّهات البيت والبيتين وبضعة الأبيات، فنضدتها درراً في مواضع من كتابي.

وحين نشر الأستاذ عبد العزيز جويدة هذه المقطوعة الرائعة في رثاء أمّه رحمها الله وجدتُ أنّ الاصطفاء منها قد يُفْسِدُهَا، فاستأذنته في نشرها كاملة في الكتاب؛ لأَنَّهَا عقد منضّدٌ ؛ كلّ جوهرة فيه لا تغني عنها أختها.

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِي صَغِيْراً

فهرس الموضوعات

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

من إصدارات الدار

للأستاذ الدكتور/ صالح بن حسين العايد

- نظراتٌ لغويّةٌ في القرآن الكريم (تأليف).
- من لهجة أهل القصيم: (بُـهْ) و (يَنْسَانْ). (تأليف).
- حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام (بعدد من اللغات) (تأليف).
- الضرورة في شعر المتنبّي (تأليف).
- الشافي في علم القوافي لابن القطّاع الصِقِلِّيّ (تحقيق).
- الفصول في القوافي لابن الدهّان النحويّ (تحقيق).
- البسيط في النحو لابن العِلْجِ الإشبيليّ (تحقيق).

التعديل والإخراج وتنفيذ أعمال الطباعة

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع - الرياض

هاتف: **4914776 – 4968994** فاكس: **4453203**

Email: eshbelia@hotmail.com

اللهُمَّ يا خَيْرَ الراحِمِيْنَ ارْحَمْنِيْ وَارْحَمْ وَالِدَيَّ كما رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً

إذنٌ من المؤلف

أَذِنَ المؤلفُ لمنْ شَاءَ توزيعَ الكتابِ توزيعاً خيريّاً أَذِنَ بإعادةِ طباعتِهِ على أنْ يُراعيَ أمرين:

الأول: الالتزام بهذه الطبعة.

الآخر: أن توضعَ صورةُ قبرِ أمِّهِ رحمها اللّه ؛ لأنه مُشارٌإليها في المقدّمة.

(خيرُ الكُتبِ مَا إذا أَعَادَ قـارِئـهُ النـظَرَ فِـيْهِ ازْدَادَ حُسْنُهُ)

(أدب الـممـلي ١٥)

وهذا الكتابُ الذي أَبْكَى كُلَّ مَنْ قَرَأهُ نحسبُ أنّ قارئَهُ سَيُعِيْدُ

قِرَاءَتـهُ مَرّاتٍ، وفي كُلِّ مرّةٍ سيقعُ فيهِ على فوائدَ جديدةٍ بإذنِ اللّه :

الأولـى : لِمَعْرِفـةِ خَبَرِهِ وَقِصَّتِهِ .

والثانيـةُ : لِتَذَوُّقِ جَمَالِ أَشْعَارِهِ وَتَأَمُّلِ معانيها.

والثالثةُ : للاسْتِمْتَاعِ بـأُسْلُوْبِهِ .

وَأُخَـرُ : لِتَدَبُّرِ حِكَمِهِ وَأَمْثالِهِ ، ولاستخلاصِ العِبَرِ والفوائدِ منهُ .

النـاشـــر

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الريـاض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٧٣٩٥٩-٤٧٩٤٣٥٤ - ٤٧٤٢٤٥٨- فـاكس: ٤٧٨٧١٤٠

البـريد الإلكتـروني eshbelia@hotmail.com